نجوى القمر

جدي إبراهيم.. وذكريات مئة عام

د. عمر بن عبدالله بن إبراهيم بن طالب

نجوى القمر

د. عمر بن عبد الله بن إبراهيم بن طالب

ح عمر بن عبدالله بن طالب، ١٤٣٨هـ.

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

بن طالب، عمر بن عبدالله

نجوى القمر جدي إبراهيم وذكريات مئة عام. / عمر بن عبدالله بن طالب. - الرياض، ١٤٣٨هـ.

١٢٨ص، ١٤× ٢١سم

ردمك : ٦-٣٨٦٠-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

١- بن طالب، إبراهيم بن محمد، ت١٤٣٦هـ. أ. العنوان

ديوي ٩٢٢،١١٣ ١٤٣٨/٤٣٠٤

رقم الإيداع: ١٤٣٨/٤٣٠٤

ردمك: ٦-٣٨٦٠-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ. ٢٠١٧م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى التي لم تدرك القمر.. لعلّها أن تراه

فهرس إجمالي

بين يدي نجواه	٧
نجوى القلب	١٣
نجوى العقل	٣١
نجوى الروح	٥٩
قمر في المتجر	٧٩
وقمر في البيت	٩٧
خاتمة النجوى	١١٣
فهرس تفصيلي	١٢١

بين يدي نجواه

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلّم على عبده ورسوله نبيّنا محمّد، وعلى آله وأصحابه والتابعين، أما بعد:

فهذا كتاب قيّدت فيه شيئاً من أطياف الحبيب الراحل، جدّي لأبي، الشيخ: إبراهيم بن محمد ابن طالب، وكانت مدّة حياته مئة سنة فيما بين عامي (١٣٣٧و ١٤٣٦هـ) رحمه الله وإيّانا والمسلمين.

وقد أدركتُ الربع الأخير من حياة جدي، وعرفت من حقيقته ما هو جديرٌ بأن يحفظ ويروى، ورأيت من البرّ به، والوفاء لذريته، والنفع للناس أن أروي هذا الذي عرفت، وأقيّد ما

حفظت، عسى أن يكون في (نجوى القمر) ذكرى للقلب، وعبرة للعقل، ومتعة للنفس وراحة؛ فإنّ الحكايات عن الصالحين ومحاسنهم جند من جنود الله تعالى تبصّر وتثبّت وتهدي، وتحفٌ من الجنة تربّي وتسلّي، وهي أحبّ إلى أبي حنيفة من كثير من الفقه؛ لأنها آداب القوم وأخلاقهم.

ولأنّي أكتب عن جدّي الذي أحببت، وأناجي أطيافه العزيزة.. فقد لقيت من لواعج الوجد به، والحنين إليه ما لقيت، وكلّما سيطر عليّ شجن أو نأت بي ذكرى ألقيت القلم، واستسلمت لطائف الشوق يرحل بي حيث شاء، فلا أرجع إلى الكتابة إلا بعد لأْيٍ، أختلس الأحرف من بين دمعة تنزل، وزفرة تصعد، على أبٍ برّ كريم، بسط حنانه علينا، وكان يحبّنا، وكنّا نحبّه، فمتّعنا الله به ما شاء أن نتمتّع، ثم اختاره إليه بعد طول عمرٍ، وحسن عمل، والحمد لله على ما أعطى، وله الحمد على ما أخذ، لا نحصي ثناءً على الله ربنا تبارك وتعالى.

ولأني أكتب عن جدي.. فقد سرت في هذه النجوى على كيف القمر، يُنقّلني في منازله على ما يشاء من ذكرى حادثٍ أو حديث، مسترسلاً مع تألّق نوره حيث نوَّر، غير متقيّد بالترتيب الزمني للأحداث، ولا مستأسرٍ للتبويب الموضوعي للأحاديث[1]، ومع يقيني بأن (خير السير ما أوحى

(١) ثم بدا لي فأقمت الكتاب في خمسة أبواب؛ ليسهل طلب كل معنى في مكانه، فجعلت الأول في عبادة جدي، وسمّيته: (نجوى القلب)، والثاني في تعلمه وتعليمه، وسمّيته: (نجوى العقل)، والثالث في جوانب من شخصيته، وسمّيته: (نجوى الروح)، والرابع في معاملته الناس، وسمّيته: (قمر في المتجر)، والخامس في معاملته أهل بيته، وسمّيته (وقمر في البيت)، ثم (خاتمة النجوى)، وستقف في كل باب على شيء من معاني الأبواب الأخرى؛ لأن كثيراً منها يصلح استعماله في أكثر من باب.

بالدرس الخُلقي ولم ينصّ عليه) إلا أنّ عنان القلم لم يكن في يدي.

ولأني أكتب عن جدي.. لم أجد بدّاً من الكتابة عن نفسي، أترى يفهم القارئ الكريم من ذلك غير ما أردت، أم يجد لي العذر حين يتذكّر أنّ الثناء على الأب، وإن عاد بالشّرف على بنيه، فإنه يوجب عليهم حفظ العهد، والجري على الأصل، ويقطع عنهم العذر في التخلّف، ويفتح عين المقارنة، ويُطلق لسان الهجاء والذمّ حين يقصّر ابنٌ عن فعل أبيه، أو يطالب فرع بمقتضى أصله فلا يوجد عنده، فشرف الآباء حجّة على الأبناء من بعدهم؛ ليدركوا مسؤوليتهم في الحفاظ على الاسم الذي ورّثوه، والمجد الذي خلَّفوه.. على أنّ الفخر أيسر البيان، وإذا صحّ أنّ مع كل شاعر شيطاناً، فإنّ مع كلّ متفاخر شيطانين، ولو أردتُ الفخر لم أجمجم به في كتاب أرجو نفعه وبركته.

وأرجو أن أكون قد وُفّقت إلى تحاشي ما رأيته، وساءني في تراجِم كثير من المتقدّمين والمتأخرين، من رسم صورة مثاليّة للمترجَم له، تجمع فيه ما تفرّق في البشر من فضائل، وما توزّع بين الخلق من كمالات، حتى يقول الناظر في ترجمته: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا﴾.

وقد تقرأ ترجمة كاملة فلا تجد فيها غير الرثاء والتأبين، أو كيل الثناء الزائد، وإطلاق الألقاب العليّة على المترجَم له من غير ذكر شواهد لها من سيرته ينتفع بها القراء في حياتهم العملية، وإنما هو الوصف المطلق والثناء المجرد من أي نفع يذكر، أو خير يؤثر، وقد روى البخاري أنّ عبد الله بن رواحة

رضي الله عنه أغمي عليه فجعلت أخته عَمْرة تبكي: وا جَبَلاه وا كذا وا كذا، تُعدِّد عليه. فقال حين أفاق: ما قلتِ شيئاً إلا قيل لي: آنتَ كذلك؟![1].

ولأني أكتب عن جدّي.. وتعرف خاصّةُ كلّ إنسان من لحظات ضعفه وأسرار حياته ما يستخفي به، ويكتمه عن سائر الناس؛ فهل كان لي أن أُدلي بكلّ ما أعرف؟

لا.. ولستُ ممّن تستخفّه مدحة التجرّد، وكذبة الصدق الفنّي، فينطق بالسوء فيمن أحسن إليه، حتى إنّ أحدهم كتب في ترجمة أبيه كتاباً، وجعل عنواناً في عيوبه قال فيه: (على أنّ أهمّ عيوب أبي أنانيّته الشديدة)!.

وحسبي أنّي لم أختلق شيئاً، وإن لم أقل كلّ شيء، وقد اجتهدت أن أصوّر جدّي إبراهيم كما رأيته، وأن أسجّل ما سمعتُ منه، وما رويت عنه بكلّ أمانة، محاولاً تجلية حقيقةٍ أطهر من الخيال، وفطرةٍ أنقى من هذه التماثيل التي يصنعها الأدباء والمترجِمون، ويتحنّث لها هؤلاء وهؤلاء.

وهيهات لأحد أن يجلو ذات أحد على ما هي عليه؛ فإن حياة الإنسان أوسع من أن يتناولها قلم، وصورة نفسه وظلالها وأضواءها أعمق من أن تلتقطها عدسة، ولو انتدبتَ عشرة كتّاب لرواية حدث واحد؛ لخرجت بعشر روايات، بينها ما بين رواتها من تشابه واختلاف.

---

(١) قوله: تعدَّد عليه: من التعديد وهو ذكر أوصاف الميت ومحاسنه في أثناء البكاء. قال ابن حجر: فإن قلتَ: ما وجه توبيخه بهذا مع أنه لم يرض به ولا أمر؟ قلت: إخباره بذلك حتى ينزجر الناس عن فعل شيء من ذلك.

وإني لأرجو ممن يطالع هذه النجوى أن يبحث عن أسرار البركة والتوفيق والمحبّة في سيرة رجل مبارك موفق محبوب.

وربما ترى أطياف من مضى إلى رحمة الله تعالى من آبائك وأجدادك، وأنت تقرأ عن رعيل يمثّلهم الجد من صالحي ذلك الجيل الطيّب الزاكي، الذي لم يتلوّث بما أُنزل على الأجيال التي بعده من فتن، وما فُتح عليهم من شرور؛ فاستغفر لهم، واعقد قلبك على محبتهم، واتّبعهم بإحسان، وتشبّه بهم ما استطعت، إن التشبّه بالكرام فلاحُ.

وعسى أن أكون قد أديت لأبي بعض ما طوقني به، وعسى أن أكون قد حدّثتك عن أبيك وأنا أحدثك عن أبي، ومن الله أستمد العون، وأسأله وحده التوفيق، وأن يتولى جزاء والدينا عنا خير الجزاء، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، وارزقنا صلاح النية، وحسن العمل، وتقبل هذا الكتاب وفاءً وبراً بأبي، وأدم نفعه وأجره علينا وعليه بفضلك ورحمتك يا جواد يا كريم.

عمر بن عبد الله بن إبراهيم بن طالب

في الرياض: ١٤٣٨/٣/٢٢هـ

نجوى القلب

من أول نشأتي وأنا أسمع أهلي يقولون: ليتنا سميناك باسم أبيك إبراهيم[1]؛ فقد ألقى الله عليك شبهه، وطبعك على شيء من طبعه الجميل، ونشأ الحفيد على محبة جده، يحمد ربه الذي نسله من ذريته، ويستجلي في كل يوم من أوجه الشبه شيئاً فتبدي له الأيام أشياء، وكم تشابهت طباع، وتفاوتت همم! والله تعالى الهادي.

ومرت الليالي والأيام، تنأى بالأبوة عن البنوة، وتأخذ من الأول بقدر ما تهب الثاني، حتى جاء يوم الثلاثاء الثاني والعشرون من شهر ربيعٍ الأول من سنة ست وثلاثين وأربعمئة وألف من الهجرة

(١) هو الجد أبو محمد: إبراهيم بن محمد بن ناصر بن علي بن محمد بن شامان ابن محمد بن غانم بن طالب، من الفضول، من بني لأم، من طيئ القحطانية.

فأطفأ سراج البيت، وحمل الروح الطاهرة إلى بارئها راضية -إن شاء الله تعالى- مرضية، وإنا لله وإنا إليه راجعون، إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون.

ومن حين سمعت النبأ الحزين ولا تزال صور جدي وطيوفه تمر بي، حشد كبير من الصور والأطياف يزحم بعضها بعضاً، وأنا بين طيف وطيف أودع غصة، وأستقبل غصة، وما أصعب الحديث عن الأب الحاني، والوالد الشفيق، عن ذكريات ثلاثين سنة من الصحبة العالية، والوصل الجميل!

في إحدى زيارات جدي الأخيرة لمسقط رأسه حوطة بني تميم، عمرها الله، أخذ يميناً وشمالاً إلى أن وقفت السيارة به في المكان الذي يريد، ثم ترجل منها فمشى خطوات حتى أشرف على سكك ضيقة، وبيوت خربة موحشة، فاتكأ بمرفقه على جدار بيت متهدم، وجعل قبضة يده على فمه، ثم وقف طويلاً، وسرح بعيدا يتذكر عهود الصبا، ويستنشي رائحة المكان، ويستخبر أطلال الأحبة، ويلهج بالدعاء لهم، ثم قال: كان هذا المكان أعز مكان وأملأه بالحركة، وأحفله بالحياة، إلا أن للمنازل كما للناس عزاً ثم يزول، وأنساً تعقبه وحشة، وحياة يتبعها موت.

ثم انصرف مثقلاً بالأشجان، فمشى إلى بيت صغير في ناحية من نواحي ذلك الحي، وطرق الباب ففتحت عجوز فيها بقية من نشاط، وأخذته إلى

غرفة صغيرة في صدرها سرير قد اتكأ عليه شيخ فان، فسلم جدي إبراهيم عليه، وجعل يسأله عن فلان وفلان وفلان، والشيخ يجيب، ولا يعرف السائل، حتى سأله الجد عن جده ناصر وأبنائه: محمد وفواز وعبدالله ومن بقي من أولادهم؟ فاستعبر الشيخ، وبكى أسرتهم التي أفناها الطاعون سنة الرحمة، ونسلهم الذي انقطع فلم يبق منهم غير ولد مسكين، راح يدرس في الرياض من أكثر من نصف قرن، ثم لم يرجع.

ثم سكت الشيخ، ثم قال: وما أظنهم إلا قد بادوا كلهم[1].

قال عمي الشيخ سعود بن إبراهيم: وكنت مع أبي فما رأيته أشد تأثراً منه في تلك الساعة، وكأنما احتبس لسانه، فلم يخبر الشيخ بشيء، وراح في صمته الخاشع يتذكر ما كان عليه وما صار إليه، يوم خرج من الحوطة إلى الرياض وحيداً لا يملك من متاعها شيئاً، فتولاه الله وآواه، وأكرمه وأعطاه، حتى أصبح يحيط به قبل موته أكثر من مئة وستين ولداً وحفيداً، يجتمعون إليه كل أسبوع، ويتردد عليه معظمهم في كل يوم، ومنهم الخطباء وأئمة المساجد، وقضاة ودعاة وأساتذة جامعات، وكثير منهم من حملة القرآن، فتبارك الله المتفضل الوهاب، الذي إذا بارك فليس لبركته حدّ.

---

(١) أدرك جدي إبراهيم سنة الرحمة، وهي السنة التي حصل فيها وباء عظيم عمّ جميع بلدان نجد، وهلك فيه أمم لا يحصيهم إلا الله، ولم يبق من نسل أبيه وجده غيره، ومرضت أمه فلم تكمل رضاعه، ثم توفّيت بعد مدّة يسيرة، وكانوا يطوفون به على البيوت فلا يجدون من ترضعه، وقد وقع الوباء في ١٥/٢/١٣٣٧هـ ، إلى أن رفعه الله تعالى في ٧/٣/١٣٣٧هـ. ينظر: تاريخ ابن عيسى ص٣٠٣ .

ويا أبا محمد: (عسى اللي زينها في الدنيا يزينها في الآخرة)، هذه دعوة طالما دعوتَ بها، أسأل الله تعالى أن يستجيب لك، وأن يجزيك عنا خير الجزاء، ويجمعنا بك في دار كرامته.

وكان جدي إبراهيم -رحمه الله رحمة الأبرار- إذا مر بالآثار وأطلال الديار يقرأ قول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُها بَينَ النَّاسِ﴾؛ ثم يقول متمثلاً: يكون للأنذال على الأشراف دولة، ويكون للخبيث على الطيب دولة، حتى الأرض وهي جماد يكون لها على الأرض الأخرى دولة في شرف موقعٍ وفضل؛ كالمساجد، أو في زيادة في القيمة المادية؛ كالأسواق والمدن، والتاريخ يشهد بذلك:

فإذا تأمّلتَ البلادَ رأيتَها
تُثْري كما تثري الرجال وتُعدِمُ [1]

وما أنسَ لا أنسَ ليلة ركب معي جدي -نوّر الله قبره- وكنا نغالب النوم، ولم يكن بنا جلد على الكلام، فحركت مسجل السيارة فانبعث صوت هادئ مؤثر، ينصح بصدق، وينادي بإخلاص: (النعيم لا يدرك بالنعيم، من رام الراحة فارق الراحة)، فلم يزل يعظ ويذكر حتى رأيت جدي لا يكاد يستقر في

---

(١) لأبي تمام: حبيب بن أوس الطائي، وقبله:

أرضٌ مصرَّدةٌ وأخرى تُثْجَمُ ... منها التي رُزِقَت وأخرى تُحْرَمُ
حظٌّ تَعاوَرُه البقاعُ لوقتِه ... وادٍ به صِفرٌ ووادٍ مُفْعَمُ

وذكره ابن خلكان بلفظ:

وإذا تأمّلتَ البقاع وجدتَها ... تَشقى كما تَشقى الرجالُ وتَنعَمُ

وروي البيت بلفظ: تَشقى.. وتسعدُ. ينظر: ديوان أبي تمام ٢/٩٦، ووفيات الأعيان ١/٤٤٣.

مكانه من شدة التأثر، وأخذ يوبخ نفسه، وينوح عليها بصوت خافت ضعيف، ثم بدأ صوته يعلو ويتهدج، فسمعته يقول: الله يرحم الحال، أستغفر الله، أستغفر الله، الله لا يؤاخذنا، نعوذ بالله من الترف، ويكرر ذلك.

ولما وصلنا المنزل هيأت له فراشه لينام، وتنحيت أرقبه من حيث لا يراني أنظر ما يصنع، وإذ هو جالس على فراشه، منكّسٌ رأسه، يناشد ربه مناشدة عظيمة في إخبات وتذلل، وسمعته مراراً يتعوذ بالله من الترف، ويقول: ربي.. ربي.. يا ربي إني داخل عليك من ذنوبي.

وبقيت مدة وجدي يردد هذا الدعاء، يقرع به أبواب السماء ودموعه تنثال من عينيه، كأنما هو داخل على الله تعالى حقيقة، باكياً معتذراً متوسلاً يطلبه ويسأله مغفرة الذنوب، وتكفير السيئات، فرحمته وتمنيت أني لم أكن أسمعته شيئاً، ثم تسللت إلى فراشي وهو على حاله، وصوته لا يزال يملأ قلبي، وإنه لا يزال.

وذات مرة سمعنا الحديث القدسي: ((يا عبادي إني حرَّمتُ الظلم على نفسي...)) فتأثر جدي إبراهيم أيما تأثر، وقال: (لقد قرأته على الشيخ محمد بن إبراهيم، وسمعته من صغري.. لكن القلوب مباركة؟ وين القلوب؟ يا خبلنا! يا خبل الناس)[1].

(١) وصف القلوب بأنها مباركة يراد به أنها غافلة لا تكاد تنتفع بما تسمع. والأصل أن وصف الشيء بالبركة يعني كثرةَ الخير فيه وزيادَته ونماءَه إلا أن العامَّة في نجد يقولون عن الشيء: (مبارك)، أو (مبروك) يريدون ذمَه، إما لأنه في أدنى مراتب القبول عندهم، وإما لأن قبوله لأمرٍ آخر خارجٍ عنه، ومن هذا قولهم: (ماشي بالبَرَكة) أي: أنه لم يستوف شروط القبول، ولكن خدَمه الحظُّ والتوفيق.

فانظر إلى هذا الشيخ -بلغه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف- كيف كان يغلبه التأثر والخشوع عند سماع الوحي حتى تجيش نفسه اللوامة بمثل هذه العبارات القلقة الخائفة، التي يتهم فيها قلبه بالغفلة، وعقله بالقصور، وما كان من الجاهلين، ولم يكن -رحمه الله- من الغافلين، وإنما قوله هذا من جنس قول سفيان الثوري، رحمه الله: بلغني أن الإنسان خلق أحمق، ولولا ذلك لم يهنه العيش.

وقد تعلمت من جدي ألا ألوم سوى نفسي إذا لم أنتفع بما أسمع من مواعظ، مهما كانت نية الواعظ، وأيّاً كان أسلوبه؛ فقد حضرت معه يوماً حديثاً عن الجنة من واعظ لا يكاد يبين، غير أنه يتلو الآيات، ويروي الأحاديث؛ ففعلت تلك الموعظة في قلب جدي فعلتها؛ لأنها صادفت قلباً نقياً شفافاً، يكاد يضيء، ولو لم تمسسه نار، فكانت أشواقه إلى تلك الدار تترجمها العبرات والحسرات والزفرات، بلغه الله تعالى الفردوس الأعلى من الجنة، وآتاه من روحها وطيبها فوق ما يأمل.

وما زال أولاد جدي وأحفاده، مع ما حصلوا من علوم، وما نالوا من شهادات، لا يرون أنهم حصلوا على شيء أمام حكمة جدي وتجرِبته، وعلمه ومعرفته؛ لأن من العلم ما لا ينال بالتعلم، وإنما يهدي الله له من يشاء.

وكنت ربما استيقظت قبل صلاة الفجر في ليالي الاختبارات، فأسمع جدي إبراهيم يتلو كتاب الله، يتهجد به، فأنسى هم المذاكرة، وأصغي إلى ذلك الصوت الشجي المحبب، وتلك النغمة النجدية التي لا تمل، فربما أعاد الآية مرتين وثلاثاً، ولكل مرة غُنة خاصة، ولحن مختلف، يميزه الحزن وعدم التكلف، ويظهر فيه التدبر والخشوع، إلا أن الشيء الذي لا شيء أعجب إلي منه، حين يدعو بتلك الابتهالات العظيمة، والدعوات التي لا أشك -إن شاء الله- في تفتح أبواب السموات لها، يثني على الله كثيراً كثيراً، ثم يدعو لوالديه ولوالديهم ووالدي والديهم وأزواجهم وذرياتهم وأحبابهم، ولرجال ونساء كثير، يسميهم بأسمائهم، أعرف بعضهم، وأجهل معظمهم.. فكنت أطوي الكتاب، وأبكي كثيراً على نفسي التي لا تنشط في كثير من الليالي للوتر، ولو بركعة، ولا تجد إقبالاً على الله كهذا الإقبال.

لقد نلتَ يا أبي أصل العلم، وشقينا نحن في تحصيل المعلومات، وعرفتَ الله تعالى، وشغلتنا عن معرفته الرسوم والعادات، ومع هذا كنتَ تتواضع لنا تواضع من لا يدري لمن يعلم، جزاك الله بأحسن ما صنعت، وهدانا للتي هي أقوم.

وقد أخبرنا جدي إبراهيم عن نفسه مرّة، أنه كان إذا تأخّر عن القيام لورده من الليل، يأتيه آتٍ فيقبض على إبهام رجله حتى ينتبه، فيسمعه يقول: (إبراهيم! إبراهيم! إذا كانت عينك نوّامة، فلا تنس حديث القيامة)، وهكذا

كانت زوجه أمّ محمد -رحمها الله- كلّما غلبها النوم عن القيام إلى وردها؛ سمعت هاتفاً ينادي باسمها: (فاطمة.. فاطمة) حتى تستيقظ.

ومن أعجب ما رأيت من أحوال جدي إبراهيم -أسكنه الله الجنة- أنه كان في أكثر دعائه وتضرعه يسأل الله تعالى المغفرة والنجاة من النار، وأن يدخله برحمته في عباده الصالحين، وكان يتهدم ويتلعثم ويختبئ بعضه في بعضه قبل أن يجرؤ على سؤال الله تعالى الجنة، فكنت أعجب من ذلك، ولا أجد له تفسيراً، حتى صحبته ذات مرة إلى صاحبه الشيخ سعد بن عبيد -رحمه الله-، وهو رجل من أهل القرآن، كان جدي يحبه ويغبطه ويجله لما معه من القرآن، فأدركناه عند باب بيته يهم بالدخول ففرح لما رأى جدي، وكأنما كانا يستشعران أنه آخر لقاء بينهما في هذه الدنيا، فجعل الرجل الصالح يدعو الله تعالى أن يجمعهما في الجنة إخواناً على سرر متقابلين، وجدي إبراهيم يؤمّن، ويرجو الله، ويسترحمه، ولما تفرق الرجلان سمعت جدي يقول: (أمّا الجنة فلها أهلها، لكن يا ألله النجاة من النار.. يا ألله النجاة من النار).

وهكذا هم أهل الإيمان، في مقام الرجاء يسألون الله الجنة والفردوس الأعلى، وأما في مقام الخوف فلا يزيدون على طلب المغفرة والنجاة من النار، وإن تضمن ذلك سؤال الله الجنة، غير أن ما قام بقلوبهم من خشية ربهم والحياء منه قد عقد ألسنتهم عن التصريح بذلك، وانظر هذا في خواتيم آل

عمران في ذكر صفة أولي الألباب.

وهذا الإزراء على النفس، وسوء الظن بالعمل، واليقين التام بالهلاك إن لم يعف الله ويسامح، هو الصفة التي تميز بها جدي إبراهيم على كثير من العابدين، ولهذا لم نسمعه يوماً يثني على نفسه، أو يدلّ بعمله، أو يرى لنفسه على أحد حقاً أو فضلاً، وأذكر أنه زارنا أحد أصدقائه المقربين، وحين سلم على جدي إبراهيم التفت إلينا فقال في حسن ظن واغترار بالظاهر: والله ما أرى ما أنتم فيه من التوفيق والصلاحِ إلا من بركات الله، ثم من بركة هذا الرجل الصالح عليكم. فأعرض جدي عنه كأنه لم يسمع ما قال، وغشيت وجهه غاشية إشفاق وعتب، وجعل يحرك شفتيه بكلام لم أتبيّنه.

وقد سألني جدي إبراهيم عن صاحبه ابن عبيد بعد زيارتنا الأخيرة له، فأخبرته أنه أصيب بمرض ألزمه الفراش، وغاب به عن الوعي، فلم يعد يعرفني، ولا يعرف أكثر أولاده، غير أنهم أخبروني أنهم يتلون عليه القرآن فإذا أخطأ القارئ، أو تجاوز آية، انتبه له، وصحح خطأه، فسكت جدي طويلاً.. طويلاً.. طويلاً، وانتظرت أن يقول شيئاً، فلم يتكلم، ولما التفت إليه أدركتُ أنّ من الدموعُ محدِّثاً.. وعلمتُ أنّ من الحديثِ دموعاً.

ومن نفثات الطنطاوي المعبرة[1]، التي تلحُّ علي كلما سرت في تأليف هذه

(١) من حديث النفس للطنطاوي ص٧.

النجوى، قوله رحمه الله: ولَدعوة واحدة لي بعد موتي، من قارئ حاضر القلب مع الله، أجدى عليّ من مئة مقالة في رثائي ومئة حفلة في تأبيني؛ لأن هذه الدعوة لي أنا، والمقالات والحفلات لكتّابها وخطبائها، وليس للميت فيها شيء. ا.هـ

فهل يملك من يقرأ هذه الحقيقة إلا أن يسأل الله تعالى لكاتبها الرحمة والغفران؛ فرحم الله الطنطاوي، ورحم الله كل مسلم حي أو ميت، ورحم الله جدي إبراهيم وأجرى أجره إلى يوم القيامة، فقد كان يصل المسلمين دائماً بدعائه من عرف منهم ومن لم يعرف، وكان إذا دُعي له بخير قال: آمين وجميع المسلمين[1]، وكان إذا مرّ بالبيوت الدوارس والأحياء التي استحالت أطلالاً، وقف طويلاً وترحّم على أهلها كثيراً، وقال: لعلّ فيهم من ليس له عقب يدعو له.

فانظر -رحمني الله وإياك- إلى هذه الرأفة بالمسلمين، ومحبة الخير لهم أجمعين، وهذا الإشفاق، وذلك العطف، وتلك الدعوات الصالحات للمقطوعين من الذرية؛ رحمة بهم أن لا يدعو لهم أحد.. فلم يمت حتى سخر الله له أكثر من مئة وستين ولداً وحفيداً تجري عليه أجورهم، ولا يكاد يخلو يوم أو ليلة من داعٍ له أو متصدق عنه، أو نائب عنه في حج أو عمرة، أو مستفيد منه علماً، أو مقتدٍ به في عمل؛ ذلك لتعلم أن الله تعالى أكرم من عبده، وأن الأعمال بالنية، والجزاء من جنس العمل.

(١) قال النووي رحمه الله: كان بعض السلف إذا أراد أن يدعو لنفسه يدعو لأخيه المسلم بتلك الدعوة؛ لأنها تستجاب ويحصل له مثلها. ينظر: شرح النووي على مسلم ١٧/٤٩.

وحدثني عمي الشيخ الموفق الكريم: محمد بن إبراهيم -متعه الله بالصحة والعافية، ومتع بحياته، وهو أكبر أولاد جدي، وبه يكنى- عن ليلةٍ شاتية من ليالي قرية العُلْيا[1]، حين كان هو ووالدي طفلين نائمين مع والديهما في غرفة واحدة، قد أحكموا إغلاق بابها ونافذتها حتى لا يتسلل منها زمهرير الشتاء، وأوقدوا ناراً للتدفئة، وناموا على خير حال، قال: فما نصف الليل حتى استيقظنا فزعين، وقد أصبنا نحن الأربعة باختناق شديدٍ، ووهنٍ وصعوبة تنفس، وبداية إغماء، وكدنا نهلك؛ فجعل والدي يتحامل على نفسه حتى فتح الباب، ثم وقف على ركبتيه، ثم قدميه، وما كاد يقف، فرفع غطاء النافذة، وعاد إلينا النفس شيئاً فشيئاً، ودبت الحياة فينا من جديد.

وليس هذا موضع العبرة من إيراد هذه القصة، إنما موضع العبرة والعبرات أن جدي إبراهيم -رحمه الله- خشي أن يكون هذا الذي أصابهم نتيجة وباءٍ عامٍّ نزل بالمسلمين، أو غازٍ أُرسل عليهم من الكافرين؛ فكان يقول وهو في تلك الحال التي أشفى فيها هو وأهله على الهلاك: (عسى ماهيب على المسلمين عامّة.. عسى ماهيب على المسلمين عامّة).

قال عمي: كأني أراه الآن أمامي ينوء بنفسه، يعتمد على مرفقيه فيسقط،

---

(١) قرية العُلْيَا هي إحدى المحافظات التابعة لإمارة المنطقة الشرقية، تقع شمال شرق مدينة الرياض على بعد ٣٥٠ كم تقريباً، وعلى بعد ١٥٠ كم من الكويت، نزلها الدوشان من قبيلة مطير، وقد مدحهم الشاعر ابن عثيمين بعد بلائهم في وقعة الجهراء سنة ١٣٣٩هـ بقوله:

واذكر مآثرَ قوم جُلُّ قصدهمُ ... جهادُ أهل الردى لا النَّفْلُ والسَّلَبُ
همْ أهلُ (قرية) إخوانٌ لهم قَدَمٌ ... في الصالحات التي ترجى بها القُرَبُ

ثم يعتمد عليهما فيقف، وهو يهمهم بهذه الكلمة، يتقطع بها صوته المجهد، وما يكاد يفيض بها لسانه.

كان عمي يروي هذه القصة، وكنت أسمع في نبرة صوته نبرة جدي، وأرى تأثره الشديد بذلك المشهد، وقد غبرت عليه خمس وستون سنة، فأقول: الله أكبر! ما أعظم أثر القدوة! إن الأب ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً تبقى في نفس ابنه ما بقي، تهديه إلى معالي الأمور، وتنأى به عن سفاسفها.

فإذا آلمك ما ترى من أثرة جامحة، وشح مطاع، وأنانية مفرطة، وتفرّق واختلاف بين عامة المسلمين وخاصتهم؛ فتضرع إلى ربك أن يسقي تلك الأرواح الطاهرة بوابل رحمته، واجتهد أن تلقى الله بمثل تلك السرائر، فإنها سر التوفيق والرفعة في الدنيا والآخرة، قال بكر بن عبدالله المزني: ما فَضَل أبو بكر أصحابَ محمد صلى الله عليه وسلم بفضل صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في قلبه. قال ابن عُليّة: الذي كان في قلب أبي بكر: الحب لله عز وجل، والنصيحة في خلقه. وقال الفضيل بن عياض: ما أدرك عندنا من أدرك بكثرة الصلاة والصيام، وإنما أدرك عندنا بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصح للأمة[1].

ومن نعمة الله على جدّي إبراهيم -رحمه الله وحشرنا وإياه مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا- أنه نشأ في بيت

(١) ينظر: غذاء الألباب للسَّفَّارِيني ١/٤٨ .

صالح، عند جدته لأمه وخالاته، وكانت كل لياليهنّ رمضان، حتى عُرفوا بين الناس بنسبتهم إلى هذا الشهر، فكان يذكر ذلك فيقول: لعل الله تعالى قد رحمني بنساء قانتات من آل رمضان، نشأت بينهن في بيوت أخوالي آل شريم، وكن يحيين الليل كله صلاة ودعاء واستغفاراً، ويكثرن الدعاء لي. فكانت دعواتهن الصالحات أعظم ما يرجّي بركته.

وكان جدي إبراهيم يحدّث عن أهله أنهم كانوا يتحيّنون البَشْرة -وهي بكارة الرطب- فيتحفون بها الأطفال، فعجبت لهم كيف اهتدوا لهذه السنة التي يغفل عنها كثير من الناس، ففي صحيح مسلم، عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤتى بأول الثمر فيقول: ((اللهم بارك لنا في مدينتنا، وفي ثمارنا، وفي مُدّنا، وفي صاعنا بركة مع بركة)) ، ثم يعطيه أصغر من يحضره من الولدان.

وأخبرنا جدي إبراهيم أنه كان مع خاله الشيخ عبدالله بن شريم التميمي -رحمهما الله- في يومٍ من أيامه الأخيرة، فسمعه ينادي ربه: يا حامل ثَقَلات العرش.. يا حامل ثَقَلات العرش.

قال جدي: فجمعت قلبي، وألقيت سمعي لأعرف ما وراء هذا النداء العظيم، وإذ هو يسكت هنيهة، ثم يقول بصوت ضارعٍ حزين: احمل عنّي ذنوبي .. احمل عنّي ذنوبي؛ ثم يبكي بكاء خافتاً طويلاً متصلا.

وهذا موضع من مواضعِ البكاء في هذه الترجمة، فلنقف قليلاً، ولنبك على أنفسنا كثيراً حينما نلتفت إليها ونحن نعرف منها ما نعرف، فنرى منها ما نرى، ونحن على يقين من الذنب، ولسنا من المغفرة في يقين، ثم نقرأ ما كان عليه أولئك الأخيار من خوف وإشفاق وخشية، مع صلاح قلوبهم، وقلة ذنوبهم، كأنما على ظهورهم من ذنوبهم جبل أجهدهم حمله، وخافوا أن يحبطهم، فتوسلوا إلى ربهم ضارعين، ونادوه خائفين وجلين: يا حامل ثَقَلات العرش.. يا حامل ثَقَلات العرش.. احمل عنا ذنوبنا.

فسلام الله على تلك الأرواح المؤمنة التي جمعت إحساناً وخشية، ونسأله بفضله ورحمته أن يغفر لنا جهلنا، وإسرافنا في أمرنا.

وبهذه الأخلاق النبيلة عرفنا من أدركنا من علماء نجد وصلحائهم، ولن تُخطئ ذلك فيما تقرأ من سيرهم وتراجم أسلافهم، أرواح ناسكة متألّهة، متقلّلة من الدنيا، مقبلة على الآخرة، خالصة لله، بريئة من الغل والأحقاد، سليمة من الكبر والضغينة، عامرة بالنصح والمحبة.

وكان جدّي إبراهيم -رحمه الله، وأوجب له الحسنى وزيادة- زاهداً في المظاهر، مجانباً للترف، مقتصداً في مأكله وملبسه ومسكنه، يعتني بنظافة بدنه وثوبه، ولا يبالي بما زاد على ذلك، ولا ينام على مرتبة، وكان يضحك مني وأنا صغير لما يرى من عنايتي بشماغي وكيّ مرزامها.

وكان يحج وحده، ويفضل الخلوة مع الله تعالى في مواسم العبادة على الاختلاط بالناس، أخبرني عمّي محمد أنه رآه على فجأة بين المزدلفة ومنى في أفواج الحجيج من غير توقع ولا انتظار، أشعث أغبر، مسفر الوجه، مطأطئاً رأسه، قابضاً إحدى يديه إلى كتفه، يتأرجح كيس ملابسه خلف ظهره، وهو يتنقل به بين المشاعر على قدميه في إخباتٍ وتذلل لله تعالى، ولهجٍ بالتلبية والتكبير، فما كان أقر لعينه، ولا أعبر لقلبه من رؤية أبيه على تلك الحال.

ومع تواضع هيئة جدي ولباسه إلا أن الله تعالى قد كساه حلاوة ومهابة، وجمالاً وجلالاً، فما رآه أحد إلا اعتقد فضله، ومن نظر إليه عرف أنه من أهل الصلاح والعبادة، كأنما يصفه مِهيار الديلمي في قوله:

ونفسٌ حرَّةٌ لا يَزدهيها
حُلَى الدنيا وزخرفُها المُعارُ
إذا التفتَتْ إلى الدنيا عيونٌ
فَلَفْتَتُها إباءٌ واحتقارُ

وكنا جالسين ذات يوم مع جدي إبراهيم -رحمه الله، وجمعنا به في دار كرامته- فجاء أحد إخواني بعد أن شهد مناسبة عند أحد الأثرياء المترفين، فجعل يصف ما رأى من صنوف الترف وألوانه وصف من تاقت نفسه إلى ما رأت، وتمنت مثله واشتهت، فلما رأى الجدّ تفاعلنا معه، أراد تربيتنا على الاستعلاء على زخرف الحياة الدنيا، والأنفة من التطلع لزهرتها الفانية،

فترك أخي حتى إذا أتم كلامه قال له: ثُمّ؟ ثُمّ؟.

ثمّ سمعت أخي بعد ذلك يحكي أن هذه الكلمة قد أعادت إليه توازنه النفسي، وكلما تطلعت نفسه إلى زهرة الحياة الدنيا ومتاعها الزائل جاءت هذه الـ (ثمّ) لتضع أمام عينيه ميزان الدنيا والآخرة، وتدعوه إلى إيثار ما هو خير وأبقى.

وصلى جدي إبراهيم معي ذات مرة صلاة الجمعة، وكنا مدعوين إلى مناسبة خارج الرياض، فاستعجلني بعض من معنا، فعجلت في الخطبة، واختصرت الدعاء ولم أقرأ بسبح والغاشية، فلما ركبنا السيارة بعد الصلاة بقي ساكتاً لا يتكلم، وشعرت بأنه يطوي فؤاده على عتب إلا أنه لم يبح لي بشيء، وشق عليّ ذلك، حتى إذا وصلنا إلى بيت مضيفنا، التفت فسأل عن الوقت، ثم قال: (لو تأخّرنا شوي كان أحسن)، ولم يزد على ذلك، لكن الرسالة وصلت وأثّرت، وجرحت وداوت، وما زالت من وراء السنين تصلني في كل مرة أعجّل فيها إلى أمر من أمور الدنيا على حساب أمر من أمور الآخرة.

ولم يتصدر جدي إبراهيم -رحمه الله- لإمامة أو خطابة أو وعظٍ طول حياته، ولم يُعرف بين الناس بشيءٍ من العبادات الظاهرة، إلا أنه كان يكثر تلاوة القرآن في بيته، ولا يدع قيام الليل، وكان من السابقين في أعمال القلوب -نحسبه كذلك ولا نزكيه على الله- وكان حسَن العبادة جداً، فكان ينتفع كثيراً بالعمل الذي يعمله، وإن كان يسيرا، وكان لا يمتنع عن رقية من

يسترقيه، يفعل ذلك احتساباً ولا يقبل عليه أجراً من أحد، فكنّا نرى الناس يقصدونه من الأماكن البعيدة فيرقيهم في مجلسه المعتاد، ويشفيهم الله تعالى ببركة القرآن.

فهذا حظ جدي إبراهيم -عامله الله بفضله، ولم يكله إلى عمله- من العلم بالله عز وجل، وهو العلم النافع الذي يصل إلى القلب، ويثمر خشية الله تعالى ومحبته، والأنس به والإخبات له، والقرب منه والشوق إليه، واليقين به والتوكل عليه، والشكر لأنعمه، والتسليم لحكمه، واتّقاء المحارم والزهد في الدنيا، ومحاسبة النفس، ورؤية التقصير، والنصح لأئمة المسلمين وعامّتهم.

وقد ذُكر معروف الكرخي في مجلس الإمام أحمد -رحمهما الله- فقال بعض من حضره: هو قصير العلم! فقال: أمسِك عافاك اللَّه، وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف؟!.

وقال عبدالله ابن الإمام أحمد: قلت لأبي: هل كان مع معروف شيء من العلم؟ فقال لي: يا بنيّ كان معه رأس العلم؛ خشية اللَّه تعالى[1].

فأصل العلم وغايته العلم بالله تعالى، ويتلوه العلم بأمره سبحانه وما يحبّه ويرضاه من قول أو عمل أو اعتقاد.

نسأل الله الكريم من فضله.

---

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح ٢/٢٣٦.

نجوى العقل

من غرائب النفس البشرية أنها تكثر الحنين إلى مراحل النشأة الأولى حينما ترى شارات الوصول في نهاية الشوط الأخير، وهذا ما كان من جدي إبراهيم -رحمه الله وجعل آخرته خيراً من أولاه- فقد لحظناه في آخر عمره يكثر ذكر جدته نورة، ولم يكن يذكرها من قبل، ويستخرج ذكريات الطفولة من تحت أنقاض السنين، يتدثر بها في شتاء العمر، وشيخوخة الأيام، فكان يحكي أن جدته كانت ترسله كلّ يوم مع بنات جيرانه إلى امرأة صالحة في حي زياد تعلمهم الهجاء والكتابة وتلقنهم قصار السور، وكان يصف لنا وقفتها على رأس الطريق تنتظر عودة حفيدها من الكُتّاب، وضحكتها أول ما تراه، وصوتها وهي تفتح ذراعيها،

وتزغرد باسمه: (برهومي برهومي)، ودموعها كلما تأخر عن الرجوع في الوقت المعتاد، وكانت أمه بعد أمه التي رحلت قبل أن تتشبث النفس منها بأية ذكرى.

وكان جدّي إبراهيم -رحمه الله، وسهّل له طريق الجنة- عارفاً بما لا يسع المسلم جهله من الأحكام على مذهب الإمام أحمد، مع سعة الاطلاع على الكتب، وكثرة مجالسة أهل العلم والعقل والأدب، وشدة الانتفاع بما يقرأ ويسمع.

وقد زرت المؤرخ الشيخ عبدالرحمن بن سليمان الرويشد ضحى يوم الخميس ١٤٣٦/٤/٢هـ، وهو صديق جدي إبراهيم، رحمهما الله[١]، فلما سلّمت عليه، وعرّفته بنفسي، قال: ولد إبراهيم؟ ونِعِم.. معلّم البادية في قرية الدوشان، رحمه الله، أخٌ لنا وحبيب، ثم قال: كان والدي يحب إبراهيم محبة عظيمة لاجتهاده في حفظ القرآن، وحرصه على طلب العلم، وكنت دون العاشرة مع والدي عند الأمير محمد بن عبدالعزيز أول ما قدم إبراهيم إلى الرياض، فسكن في حجيرة صغيرة تابعة لمسجد الوسيطى[٢]، وهو مسجد صغير أنشأه الأمير، ثم بناه آل سلِيم، فكنت أتردد على المسجد، فلا أرى إبراهيم إلا عاكفاً على كتبه يقرأ فيها، أو يراجع القرآن مع شاب حربي كفيف البصر كان في الحجرة المجاورة لحجرة إبراهيم يدعى: محمد بن صوّيان.

---

(١) بلغني خبر وفاة الشيخ عبدالرحمن الرويشد في أثناء مراجعة هذا الكتاب يوم الاثنين ١٤٣٨/٣/٢٧هـ، رحمه الله، وغفر له، وجمعنا به في الجنة.

(٢) الوسيطى من المزارع المشهورة في الرياض قبل القرن الثاني عشر الهجري، وفي سنة ١٣٥٦هـ قطع معظم نخيلها حتى تهوّل الناس من كثرة ما قطع، وبني حيّ الوسيطى ومسجدها، وبدئت الصلاة فيه في نهاية سنة ١٣٥٧هـ، وهو من المساجد المتوسطة المساحة القوية البناء، ثم أعيد بناؤه في التسعينيات الهجرية بناء مسلحاً، وزيد في مساحته، ولا يزال قائماً حتى اليوم، ومن أئمة هذا المسجد الشيخ عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ، وأخوه الشيخ عمر، وابنه عبدالملك بن عمر، والشيخ سعود بن محمد بن رشود لمّا كان قاضيا في الرياض. ينظر: تاريخ المساجد والأوقاف القديمة في بلد الرياض لراشد بن عساكر ص١٢٦.

ثم أصيب إبراهيم بمرض عجيب لا ندري ما هو، وما كنا نتصور أن ينجو منه لولا فضل الله ورحمته، وقد لازمه المرض أسابيع، وكان الأمير يتفقده، ويسأل عنه وأمر طبيبه الخاص أن يمرّضه، فجلب له أدوية حديثة ولم يزل يتعهده بالرعاية حتى شفاه الله، وكان إبراهيم يلازم دروس الشيخ محمد ابن إبراهيم، وغيره، ويجالس العلماء، ويصاحب طلاب العلم، وأحياناً ينسخ بعض الكتب والمتون بأجر زهيد، وربما درّس قصار المفصّل، وثلاثة الأصول ونحوها في بعض القصور على ملء بطنه، فلم يزل على ذلك إلى أن عيّنه الشيخ محمد بن إبراهيم معلماً في قرية، فانقطعت عني أخباره مدة، ثم تجدد العهد بيننا، واتصلت الصحبة إلى أن توفي، رحمه الله.ا.هـ

وكان جدي إبراهيم قد أتقن القراءة والكتابة في حوطة بني تميم، وحفظ أجزاء من القرآن قبل البلوغ، فلما قدم إلى الرياض (سنة ١٣٥٨هـ وله من العمر اثنتان وعشرون سنة) انتظم في حلق العلم لأوّل قدومه إليها، فأقام أربع سنين يدرس عند الشيخ محمد بن إبراهيم؛ مفتي الديار، وعمّه الشيخ محمد بن عبداللطيف، وهو أكثر من قرأ عليه قراءة خاصّة، والشيخ عبدالله ابن محمد بن نصبان، وغيرهم.

فكان يحضر دروس الشيخ محمد بن إبراهيم في المختصرات من متون العقيدة والفقه والحديث، كشرح كتاب التوحيد، وكشف الشبهات وثلاثة الأصول، والعقيدة الواسطية، وعمدة الأحكام، والأربعين النووية، وآداب

المشي إلى الصلاة ونحوها، ولم يزل على ذلك حتى بعثه الشيخ إلى قرية العليا معلّما،، فكره جدي ذلك وتمنّع، وجعل يقول للشيخ: (ما بعد حصّلت شيء)، فيجيبه الشيخ: (تكفينا قراءة أهل الحوطة).

ثم استشفع إلى الشيخ ليبقيه في الرياض، فأبى، وقال: إذا مر شهر وما طابت لك قرية؛ أبرق لنا، فذهب جدي إبراهيم على مضض، وأبرق في الشهر الأول والثاني والثالث ليرجع، فلم يؤذن له، وبقي هناك يعلّم الناس الخير، ومبادئ القراءة والكتابة والحساب، يرجعون إليه، ويصدرون عنه فيما ينوبهم، ولم يغادر قرية العليا حتى أتم فيها ستة وعشرين عاماً؛ منها اثنتا عشرة سنة خالصة في التعليم، وباقيها بين التعليم والاشتغال بالتجارة[1].

وأهل قرية العليا يعدّون جدي إبراهيم مؤسس التعليم في قريتهم، وقد رزقه الله من الطلبة البررة، ونشر له من الذكر الحسن ما نتفيّأ ظلاله، إلا أن بُعده من الحركة العلمية في الرياض قد حال بينه وبين تحصيل ما يرجو من العلم، وقد بقيت في نفس جدي حسرة على ما فاته من ذلك، عوّضه الله في ذريته خيراً.

وكان الجد يتردد على الشيخ محمد بن إبراهيم -رحمهم الله- من قرية

(١) كان جدي معلماً في الكُتّاب الوحيد بقرية في غرفة ملحقة بجامعها من أول ما بعثه الشيخ محمد بن إبراهيم سنة ١٣٦٢هـ إلى أن فتحت أول مدرسة نظامية لوزارة المعارف هناك سنة ١٣٧٠هـ، فانتظم مدرساً فيها أربع سنوات، ثم استقال من التعليم النظامي سنة ١٣٧٣هـ وله من العمر (٣٦) سنة، وقد جاء إلى (قرية) وعمره (٢٦) سنة، وبقي فيها (٢٦) سنة، ثم انتقل إلى مزرعته في الدلم عام ١٣٨٨هـ وعمره (٥٢) سنة، فبقي فيها (٤٣) سنة، إلى أن رجع إلى الرياض سنة ١٤٣١هـ وله من العمر (٩٥) سنة، فبقي فيها خمسة أعوام إلى أن وافاه الأجل يوم الثلاثاء ١٤٣٦/٣/٢٢هـ رحمه الله رحمة واسعة.

العليا ينقل إليه سلام الناس هناك وحاجتهم وسؤالهم، وذات مرة وافق وصوله وقت صلاة الظهر، فصلى مع الشيخ وآثر أن يؤخّر السلام إلى العصر، فلما سلم على الشيخ بعد العصر قال له مداعباً ومعاتباً: انتظرتك الظهر؛ لمّا سمعت نحنحتك في الصلاة.

قال جدي: ومما انفرد به الشيخ محمد بن إبراهيم -رحمه الله- وهو كفيف لا يبصر أنه يعرف أنفاس طلابه، ينقطع عنه الطالب الأشهر الطوال، ثم يأتي للسلام عليه، فيتفاجأ بأن الشيخ لا يزال يتذكره، ويحفظ اسمه مع كثرة مشاغل الشيخ واختلاف طلابه.

ثمّ سمعت الشيخ ابن باز يذكر نحو هذا وهو يذكر منّة الله عليه بأن جعله من أخص تلاميذ الشيخ محمد بن إبراهيم -رحمهم الله جميعاً-، ويذكر فضل الشيخ عليه وهو يدعو له، ويبكي ويقول: كان وكان وكانت له عناية عظيمة بالطالب[1].

قال جدي إبراهيم رحمه الله: وجئت الشيخ محمد بن إبراهيم مرة أشتكي إليه من أمر؛ فقال لي على سبيل المواساة والمداعبة: (عاد ما أُخِذ إلا بعيِّرك يا بن طالب) فذهبت مثلاً.

(١) لازم الشيخُ ابن باز الشيخَ محمد بن إبراهيم عشر سنين من عام ١٣٤٧هـ إلى عام ١٣٥٧هـ وهي السنة التي عيّن فيها قاضياً في الدلم، فلم يزل على ذلك حتى عام ١٣٧١هـ. ومن ثمّ فإنّ جدي إبراهيم لم يدرك ابن باز عند الشيخ محمد ابن إبراهيم، ولم يدرك قضاءه في الدلم أيضاً.

وحدثني عمي محمد أنه سمع جدي يقول: إذا قال الشيخ محمد بن إبراهيم: قال شيخنا؛ فيعني به الشيخ سعد بن حمد بن عتيق. قال عمي: وسمعت أبي يقول: سمعت الشيخ محمد بن إبراهيم يقول: الشنقيطي بحر لا ساحل له، يعني: صاحب أضواء البيان[1].

وحدثني جدي إبراهيم أنه كان مع الشيخ تريحيب بن بندر بن شقير في زيارة شيخه الشيخ محمد بن إبراهيم، قال: فسأله الشيخ عن هيئة الأمر بالمعروف، وهل هي على حال حسنة؟ فكأن تريحيب لم يمدح الحال، فمد الشيخ يديه الثنتين، وجافاهما عن عضديه - وهنا استعبر جدي وهو يقول: الله يبرّد عليهن في الجنة، الله يبرد عليهن في الجنة- وقال: ((سدّدوا وقاربوا))، وبسط راحته اليسرى، قال جدي: كأني أراه الآن، وهو ينكت في وسطها بسبابته، ويقول: سدّدوا، ثم ينكت فوق ذلك وتحته وعن يمينه وشماله ويقول: وقاربوا، إذا لم يحصل السداد فلا أقل من المقاربة.

وجرى ذكر سماحة المفتي الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ -حفظه الله- في مجلس الجدّ، -وهو حفيد شيخه محمد بن عبداللطيف، المتوفى سنة ١٣٦٧هـ رحمه الله-، فجعل جدي إبراهيم يذكر جِدّه في التحصيل، ويقول: (الله

(١) سمعت الشيخ صالح الفوزان -حفظه الله- يقول عن شيخه الشيخ محمد بن إبراهيم: (كان لا يُظهر أيّ شيءٍ مما يعمل، ويحرص على التكتم مهما أمكن، ولا يحب أن يَمدح، ولا يحب أن يُمدح أبداً، هذه طريقته، وقد سألتُ الشيخ عبدالله بن حميد -رحمه الله- بعد وفاته: ما تقول في شيخك؟ فتنهّد وقال: سيذكرني قومي إذا جدَّ جِدُّهم.. وفي الليلة الظلماء يُفتقدُ البدرُ). فإذا عرفتَ هذا من خلق الشيخ محمد بن إبراهيم عرفت قيمة هذه الكلمة التي قالها في قرينه ومعاصره الشنقيطيّ، رحمهما الله.

يرحمنا، العلم مواهب من ربّ العالمين)، ثم ذكر عن الشيخ صالح الحوطي -رحمه الله- أنه كان يشير إلى الشيخ عبدالعزيز آل الشيخ في صباه، ويقول: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾.

قال جدي إبراهيم: وكان الشيخ محمد بن عبداللطيف يجلس لتدريس الطلاب في بيته، وكان عالماً كريم الشمائل محبوباً من الجميع، وكان يُسمّى (راعي السِّفَر)؛ لكرمه البالغ، وكان يتهيأ له أن رجلاً مر من الشارع وهو في المجلس فيصيح بأعلى صوته: (اقلط)[1].

وحكى لي الجد قصةً عن الشيخ: عبدالله بن عبدالعزيز العنقري -صاحب الحاشية النفيسة على الروض المربع، المتوفى سنة ١٣٧٣هـ رحمه الله-، فذكر أن الملك عبدالعزيز عيّنه قاضياً لإقليم سدير، فكان يجلس في المجمعة للتدريس والإفتاء، وله ولد يحضر دروسه مع الطلاب، ولا يحصّل شيئاً يذكر، فقال لأبيه يوماً وقد آلمه حاله: (أبوي.. أبوي أنا أقنص في قفّة ما لها غطيّة) يريد أن المعلومات تطير، وكانوا يقنصون الجراد في قفّة من خوص؛ فقال أبوه: (يا وليدي، قل: ما لها قاع، لو كان ما لها غطيّة كان بقى فيها شيء عالق منّا ومنّا)، يريد أن المعلومات لا تستقر أصلاً، فكأنّ أباه وهو يعلّمه إنما ينفخ في قربة فيها ثقوب.

(١) اقلط: كلمة من عامية نجد، تعني: تفضّل بالدخول إلى البيت وتناول الطعام، واشتق منها لفظ: (المقلّط) للغرفة التي يتناول فيها الضيوف الطعام. و(السِّفَر): جمع سفرة، وهي المائدة وما عليها من الطعام.

ونعم.. نعم.. صدق جدي، رحمه الله: (العلم مواهب من ربّ العالمين) نسأل الله الكريم من فضله.

ولما عيّنتُ قاضياً في جدّة ذكر لي الجدّ -رحمه الله وأعلى جَدّه- طرفاً من أخبار الشيخ القاضي: مبارك بن عبدالمحسن بن باز المكنى بأبي حسين، وأنه لما كان قاضي الحلوة بحوطة بني تميم خلفاً لأبيه المتوفى سنة ١٣٤٢هـ دعاه أحد أهلها فاعتذر الشيخ؛ لأنها دعوة خاصة أقيمت لأجله، ثم دعاه مرةً أخرى دعوة عامّة فلما حضر الشيخ قرّب إليه الحنيني واللبن وبالغ في الضيافة والإكرام، فلمّا قام الشيخ لينصرف أخذ الرجل يكلّمه في دعوى له، فجعل الشيخ يمسح بطنه ويقول: (حنيني ولبن، حنيني ولبن، إذا كان بعد يومين فتعال مع خصمك في مجلس الحكم)، ورفض أن يسمع منه شيئاً في غياب خصمه.

وروى لي جدي إبراهيم منقبةً عظيمةً من مناقب الملك عبدالعزيز والشيخِ أبي حسين -رحمهما الله- حين لم يقبل شفاعة الملك في أمر من أمور القضاء، وذلك أن أحد الخصوم جاء إلى أبي حسين بشفاعة من الملك عبدالعزيز، فأجابه الشيخ بحركة بيديه، لها معنى شديد.

فقال الخصم: هذه لي أو لطويل العمر؟.

فسكت الشيخ، ولم يجبه. ولما وصل الخبر إلى الملك -رحمه الله- ضحك ولم يزد على أن قال: (تعدّيت السنّة يا شيخ).

ويغشى قلبي الآن أسفٌ لا أجد بدّاً من البوح به على أحاديث لم أحفظها عن جدي إبراهيم، وأسئلة لا أعرف جوابه عنها، وهو الذي قدم إلى الرياض في شرخ الشباب، وهي آهلة بالعلماء الأعلام، فأقام فيهم أربع سنين، لا شغل له إلا الطواف بحلقهم، وتقصّي أخبارهم، ثمّ ابتدأني من ذلك بفرائد كان هو شاهدها الواحد أو شاهدها الباقي، حفظت من ذلك ما حفظت، ونسيت من ذلك ما نسيت؛ فكيف لا آسى على علمٍ طار من اليد، وذكريات ليس إليها سبيل؟!.

وربّ حدثٍ لا تحفل به اليوم يصبح ذكرى عزيزة في مأتيّ الأيام، وربّ حديثٍ لا تلتفت له يتأكّلك الشوق إليه بعد فوات الأوان، فمن أدرك أبويه فليغترف من سيرتهما غرفاتٍ، تخفّف ظمأ الشوق، وتبلّ عطش الذكرى، فإن لم يكن للناس فيها نفع كان له فيها متعة أو سلوى.

ومن عجبٍ أن يطوي الأبوان ذكرياتهما عن الأولاد، وهي التي تبقى في ذاكرة الذريّة غمامة أجر ومحبة تمطر قبريهما بالدعاء الخالص، والذكر الجميل.

ومما حدّثني به جدي إبراهيم أنه كان في مجلس الملك عبدالعزيز -رحمهما الله- بمنى قال: وكنّا جالسين قبالته على الأرض، وبيننا وبينه عدة أمتار، وكان يغشى مجلسه كبار الرؤساء والوجهاء مع عامّة الناس،

قال: فخرجت من ذلك المجلس بفوائد:

الأولى: أنه استشهد بقول القائل: الحسنة في نفسها حسنة، وهي من أهل بيت النبوة أحسن، والسيئة في نفسها سيئة، وهي من أهل بيت النبوة أسوأ.

والثانية: أنه أنشد قول الشاعر:

إذا لم يكن إلا الأسنَّـــةَ مركـــبٌ
فما حيلةُ المضطـرّ إلا ركوبُها[1]

والثالثة: أنه تمثّل قول الأوّل:

إذا خانك الأدنى الذي أنتَ حِزبُهُ
فوا عجبـاً إن سالمتـــك الأباعدُ[2]

قال جدي إبراهيم: ولو رأيت عبدالعزيز ينشد هذا البيت، يمد به صوته، ويحرك يديه، لعلمت أيّ رجلٍ كان.

ومن جدي إبراهيم عرفت قصّة الملك عبدالعزيز -رحمه الله- حين دعاه فاروق مصر إلى زيارتها، وأرسل إليه وفداً على رأسهم العقّاد؛ فأقام أهل الحجاز حفلاً لوداع الملك في الميناء قبيل سفره، حضره سفراء الدول،

(١) للكُمَيت بن زيد الأسدي (المتوفى سنة ١٢٦هـ)، وقد اشتهر البيت بهذا اللفظ وهو في كل ما وقفت عليه من المصادر بلفظ: فَلَا رَأْيَ لِلْمُضْطَرِّ إِلَّا رُكُوْبُها. ينظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة ٥٦٨/٢، والإعجاز والإيجاز للثعالبي ص١٤٣، ونهاية الأرب للنويري ٦٩/٣.

(٢) للشاعر: علي بن المقرَّب العيوني (المتوفى نحو سنة٦٣٠هـ). ينظر: علي بن المقرب العيوني حياته وشعره لعلي الخضيري ص٧٢.

ورجال الدولة، وعامّة الناس، وأنشد الشاعر: أحمد الغزاوي يومها قصيدة قال فيها:

وأخشى الذي نخشاه من مصرَ أنها..

ثم كرر هذا الشطر فجعل الملك ينظر إليه، وقلق الحضور كلهم، ولاسيما الوفد المصري، وجعلوا يتطلّعون لمعرفة ما الذي يخشى الشاعر على الملك من مصر وهو على جناح السفر إليها، فأنشد:

وأخشى الذي نخشاه من مصرَ أنها

تنافسُنــا فيكَ الهــوى فنضِيــعُ

فتبسم الملك، وعجب الناس، ودوّى المكان بالتصفيق.

وكان جدي إبراهيم -أدام الله غبطته، وبسط عليه رحمته- طويل الصمت، رزيناً قليل الكلام وخصوصاً في المجالس العامة، لا تكاد تخرج الكلمة منه إلا بوزنٍ، ولا تخرج إلا في موضعها، وكان لا يشتغل بما لا يعني، ولا يهتم بما لا ينفع، ولا يشارك في فراغ، ولم نره يوماً يضحك ضحك الجهلاء الفارغين، وكانت مجالسه محفوفة بالأدب والوقار، وعلى طول ما صحبته لم أسمعه يوماً يغتاب أحداً، أو يذكره بسوء، ومن حشمته وحسن أدبه لم يحفظ له حديث واحد

فيما لا ينبغي من أمر النساء، وإذا جرى ذكر شيء من ذلك من بعض جلسائه لم يشارك فيه بكلمة، ثم تلطف في جر الحديث إلى ما ينفع.

ومع أن جدي إبراهيم كان يقرأ الصحف، ويتابع الأخبار، ويتألم لأحوال المسلمين البائسة في كل مكان إلا أنه كان لا يعلّق على شيء من ذلك بسوى الدعاء الكثير الصادق بعزّ الإسلام والمسلمين، وصلاح أئمتهم وولاة أمورهم، وإذا سمع أحداً يذكر ولاة أمرنا بسوءٍ زجره عن ذلك، وقال: إن كانت سيئاتهم كالجبال فإن حسناتهم كالليل، أليس الليل يغطي كل شيء، وهل ترى جبلاً في جنح الظلام؟!.

ولا أنسى قدوم جدي إلى الرياض من الدّلم[1] وهو ابن تسعين سنة حين بلغه نبأ وفاة الملك فهد -رحمهما الله-، وإصراره على الذهاب إلى الجامع الكبير ليشهد الصلاة عليه، مع تأخّر الوقت، وشدة الزحام، ومشقة الوصول.

وكان جدي إبراهيم إذا دخل مسجداً غير مسجد حيّه لا يعمد للروضة -وهي وسط الصف الأول خلف الإمام- ويقول: أهل المسجد أولى بها منّا، بها مصاحفهم، ويفقدون إذا غابوا.

ولم نسمع جدي يعيب طعاماً قُدم إليه، وما رأيناه يوماً غاضباً من تأخر طعام أو عدم نضجه، وكان إذا دُعي إلى وليمة لم يذهب حتى يطعم شيئاً

(١) الدّلَم: مدينة زراعية من أعمال محافظة الخرج، تقع جنوب مدينة الرياض بمسافة ٩٠ كم تقريباً، على الطريق السياحي السريع الذي يربط العاصمة الرياض بجنوب المملكة.

يكسر حدة الجوع، وكان يستقبح أن يظهر أحد نهمته وشرهه في طعام غيره، ويقول: (لا تروح للناس إلا وبطنك فيه ربعه)، فلما كبرت ونظرت في كتب الفقهاء رأيتهم يذكرون نحو ذلك؛ فقد حكى ابن مفلح عن شيخه أبي العباس ابن تيمية أنه كان إذا دعي أكل ما يكسر نهمته قبل ذهابه، قال: ولعله تبع في ذلك من مضى من السلف[1].

وكان جدي إبراهيم يوصينا بما أوصى به النبي صلى الله عليه وسلم معشر الشباب من المبادرة إلى الزواج، ويقول: (ما به أحدٍ تزوّج إلا تلقاه يقول ليتني متقدّم).

وكان كثيراً ما ينشد:

وأفضــلُ قَسْـمِ الله للمــرء عقلُهُ
فليس من الأشيــاء شيءٌ يقـاربُهْ
إذا أكمـل الرحمــنُ للمــرء عقلَـهُ
فقـد كمُـلت أخلاقــه ومآرِبُــهْ

وقد ضرب جدي إبراهيم في الأرض يبتغي من فضل الله، وتقلّب في البلاد، وتغرّب في بيئات مختلفة، وخالط كبار العقول، فأثمر له ذلك سعة، وحسن إدراك وبصيرة، وقدرة على وزن الأمور، ومعرفة إصدارها وإيرادها، وقد كان أئمة السلف الصالح لا يعتدّون بصلاح الرجل ولا علمه إلا بعد سؤالهم عن

(١) ينظر: الآداب الشرعية لابن مفلح ٣/٢٠٨.

عقله، وإذا بلغهم عن أحد عبادة، أو كثرة رواية، قالوا: كيف عقله؟ فإن قيل: عاقل. رجوه، وقالوا: ما أخلقه أن يبلُغ!.

وعن همام بن يحيى قال: قلنا لقتادة أيُّ الناس أغبَط؟ قال: أعقلُهم. قلنا: أعلمهم؟ قال: أعقلهم. وقال الشعبي: لا خير في علم بلا عقل. وقال يونس بن عبيد: لا ينفعك القارئ حتى يكون له عقل.

وقال الحسن: ما يتمّ دين الرجل حتى يتمّ عقله، وكان يقول: ما أودع الله عز وجل امرأ عقلاً إلا استنقذه به يوماً ما[1].

ولو سألت عن الصفة التي غلبت على جدي إبراهيم، وتغلغلت في فكره، وسيطرت على نفسه، فترقرقت بها شمائله، وأورقت جوارحه.. لقلتُ بلا تردد: العقل.. العقل.

ولو كررت السؤال على كل من عرفه فلن تسمع غير جواب واحد: العقل.. العقل، ولو رجعتَ تقرأ هذه النجوى مرّة أخرى لوجدت شواهد ذلك في كل جملة منها، فقد كان جدي -رحمه الله، وأجزل ثوابه- يُنعت بالعقل والحكمة، وبهما يعرف، ولا يذكر له من فضل الله تعالى وتوفيقه موقف تصرّف فيه بغير ما يحمد عليه.

(١) ورد في هذا المعنى آثار كثيرة عن السلف الصالح، روى جملة منها ابن أبي الدنيا -رحمه الله- في كتابه النافع: (العقل وفضله).

ويا ما يلقى أصحاب العقول في هذه الدنيا.

رحم الله جدي إبراهيم؛ كم كان يغتمّ إذا سمع من أحدنا قولاً، أو رأى تصرفاً ينافي الكمال، أو يضاد الحكمة، ولم يكن مع ذلك يحملنا على فضل عقله الذي جُبل عليه، وأفادته الأيام بكثرة التجارب وممارسة الأمور، بل كان يعذرنا، ويرفق بنا ويقابل طيشنا بحكمة، وكان يتصبّر، ويغضب أحياناً، ويشتدّ، ولا يقول إلا خيراً، فمرّة يكتفي بسؤال المستنكر فيقول: (يا بيّي! ليه؟)، أي: يا أبي.

وأحياناً يقول: (اِمْرح.. امرح.. لا تَخَيْبَل)، والمَرَاح: موضع النوم.

وربما أنشد:

إنّ الأمور إذا الأحـداثُ دبَّرهـا

دون الشيوخِ ترى في بعضها خَلَلا[1]

ثم تبسّم وقال: إن الشاعر تسامح، فلم يقل: ترى في كلها خللا.

وربما قال: (العقل كايد)؛ ومعناه أنه لا ينال إلا بعد تجربة طويلة ومعاناة.

أو يقول: (المرجلة نيشَان ما كلّن يصيبه) ثم يقول: تعرف النيشان؟! هو هدف الرماة، وغالباً ما يكون شيئاً صغيراً يعجز أكثرهم عن إصابته.

---

(١) لإسحاق بن خَلَف المعروف بابن الطبيب من شعراء المعتصم، وقبله:

إن الشبابَ لهم في الأمر معجَلةٌ ... وللشيـــوخ أناةٌ تدفـــعُ الزللا

ينظر: طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٤٣، والوافي بالوفيات ٨/٢٦٧.

وربما قال في أسف: (يا شكواي إلى الله!).

أو يقول: (هذا اللي والله ما هذّبها) يعني: النفس.

وربما نظر إلى ولده المخطئ بحزن بالغ وهو يتذكر ما كان يؤمل فيه، ثم يقول متأوّهاً وهو ينفض يديه: (قَسْم الله مبارك.. قَسْم الله مبارك)، وهذه من أشد ما نسمع، وأوجع ما يقول، ومعظم هذه الكلمات مما يسلي به نفسه ولا يستدعي بها جواباً من الابن، لكنه يسمعها فتستفزّه إلى نيل رضا أبيه بأقصى ما لديه، وتفعل في نفسه ما لا يفعله التوجيه المباشر، والمحاضرات التي لا تكاد تجدي شيئاً.

وأذكر أنه نبّه أحدنا ذات مرّة برفق، ثم نبّهه أخرى لأمر آخر، ثم لأمر ثالث، فانزعج الابن من كثرة الملاحظة وتكررها، فتبسم جدي، وقال: (يا بيّ! ماهيب نقطة ولا نقطتين.. عشرين). ولعلها أكثر من عشرين، فقد كان بيننا وبين ما يريده لنا مراحل، ولعلّ ما لا يعجبه أكثر مما يعجبه، لكنه يغضي ويتغافل.

ونحن اليوم نتذكر شدته علينا، وكثرة تقريعه، فنحنّ إلى هذا وذاك، رضي الله عنه، ورحم شيبته في الجنة، وجزاه عنّا خيرا.

وإذا كان أبو العتاهية يقول:

إذا ما مضى القرنُ الذي كنتَ فيهمُ
وخُلّفــتَ في قــرنٍ فأنتَ غريــبُ

فلقد تعاقبت على جدي أجيال، إلا أنه لم يكن غريباً في أيٍّ منها؛ لأنه كان متفتّح العقل، منضبط التفكير، مقبلاً على الحياة؛ لمّا فعّلت خدمة الهاتف الجوال كان من أوائل من اقتناه واستعمله، وحين كان بعض الناس ينهى عن تعلم رطانة الأعاجم كان يحضّ على تعلم لغة القوم، ويقول: إنها لغة العصر ولا بد أن تحتاج إليها يوماً من الدهر، ولمّا اعترض ناس على فتح مدارس لتعليم البنات كان من أوّل من ألحق بناته بتلك المدارس.

ولما أنشدتُه قول الشاعر:

ما مضى فات والمؤمَّل غيبٌ
ولك الساعةُ التي أنتَ فيها[1]

وقول الطنطاويّ عقبه: لا والله؛ ما فات ما مضى، ولكن كتب لك أو عليك، أحصاه الله ونسوه. قال جدي غفر الله له: كلاهما مصيب، كلاهما مصيب.

وقال لي ذات مرة: كلمة لا أزال أسمعها من الخطباء في صلاة الاستسقاء وأكرهها، ليتهم يستبدلون غيرها بها، لعلّهم قرؤوها في كتب الفقه، وجعلوا يرددونها في غير محلها.

---

(١) قال ابن عساكر: أنشدنا أبو الحسين عبدالله بن الحسين بن منصور المطوعي خطيبب وشنج بها، قال: أنشدني أبو إسحاق إبراهيم الغزي بهراة لنفسه:

إنما هذه الحياة متاعٌ والغبيُّ الغبيُّ من يصطفيها
ما مضى فات والمؤمَّل غيبٌ ولك الساعة التي أنتَ فيها

ينظر: تاريخ دمشق لابن عساكر ٥٣/٧ .

قلت: أي كلمة؟

قال: أليس يقولون في الدعاء: اللهم إن بالعباد من اللأواء والجهد والضنك! أيّ جهد وأيّ لأواء وضنك يشتكيه العباد، وقد وسّع الله لهم الأرزاق؟ وأسبغ عليهم النعم؟!.

وقد روي هذا الدعاء في حديث يضعفه العلماء بالحديث.

وفي ذات مرة صلى جدي إبراهيم خلف إمام مصري كان يجلّه، ويحب الصلاة معه، فلما فرغ من التشهد وأراد أن يسلم قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فزاد: وبركاته، فقال له جدي ناصحاً وممازحاً: اتركها في مصر.

وهذا من فقهه رحمه الله؛ فليس من السائغ التشويش على العامة في أمر الصلاة بما استقرت السنة عندهم على خلافه، وفي مثل هذا يقول الشيخ ابن باز -رحمه الله- في مسألة ترك الجهر بالتأمين: إذا كان بين أناس لا يجهرون بالتأمين، فالأولى أن لا يفعل؛ تأليفاً لقلوبهم، فإنه متى خالفهم استنكروا هذا؛ لأنهم يرون أن هذا هو الدين، وعاشوا عليه مع علمائهم، وإن كان الصواب أنه يستحب الجهر بالتأمين، فيكون تَرَك أمراً مستحباً، ولا يفعل المؤمن مستحباً يفضي إلى انشقاق وخلاف وفتنة، بل يترك المؤمن والداعي إلى الله المستحب إذا كان يترتب على تركه مصالح أعظم[1].

(١) ينظر: مجموع فتاوى ابن باز ٢٩/ ٢٧٤ .

على أن استحباب زيادة: وبركاته؛ محل نظر، وفي ذلك يقول الشيخ ابن باز -رحمه الله-: المحفوظ في السنة أن يقول: السلام عليكم ورحمة الله، أما زيادة: وبركاته؛ فهي من رواية علقمة بن وائل عن أبيه، وفي صحة سماعه من أبيه خلاف بين العلماء، ومنهم من قال: إنها منقطعة، فالمشروع أن يقتصر على السلام عليكم ورحمة الله؛ خروجاً من خلاف العلماء، وعملاً بالأمر الأثبت والأحوط[1].

ومع إعجاب جدي الشديد بقصيدة: وقفتُ على دارٍ لِميَّةَ .. التي نظمها ابن عثيمين[2] في مدح حاكم قطر آنذاك الشيخ عبدالله بن قاسم آل ثاني، إلا أنه لم يعجبه قوله فيها:

تسلّيــتُ عن كلٍّ بتِذكـارِ عصبــةٍ
لهمْ في العُلا مجـدٌ تليدٌ وطـارفُ

لأن الشاعر أورد هذا البيت بعد قوله:

جعلتُ سميري حين عزَّ مسامري
دفاتـرَ أملتهـا القـرونُ السوالــفُ
فطوراً أناجــي كلَّ حبــر موفَّــقٍ
إذا ما دعـا لبَّـت دعــاه المعــارفُ

(١) ينظر: مجموع فتاوى ابن باز ١١/١٦٥.

(٢) ابن عثيمين: هو محمد بن عبدالله بن عثيمين، شاعر فصيح شجاع، من شعراء حوطة بني تميم، ولد في السلمية من أعمال محافظة الخرج، واشتهر بشاعر نجد، تنقل بين البحرين وقطر وعمان، وسكن قطر، وحمل راية صاحبها الأمير: قاسم بن ثاني في بعض حروبه، ولما استولى الملك عبدالعزيز على الأحساء قصده ابن عثيمين ومدحه، فلقي منه تكريماً، فاستقر في الحوطة يفد على الملك كل عام ويعود بعطاياه إلى أن توفي سنة ١٣٦٣هـ، رحمه الله، ولم يجمع شعره في حياته ثم نشط له الشيخ: سعد بن عبدالعزيز بن رويشد فجمع متفرقه، وصنفه في ستة فصول، وسماه: العقد الثمين من شعر ابن عثيمين. ينظر: الأعلام للزركلي ٦/ ٢٤٥، والعقد الثمين ص١٧ وما بعدها.

وطـوراً كأني معْ زهيــرٍ وجَــرْولٍ
وطـوراً يناجينـي ملوكٌ غطارِفُ
تسلّيــتُ عن كلٍّ بتِذكــار عصبــةٍ
لهم في العلا مجـد تليدٌ وطارفُ

فكان يقول: رحم لله ابن عثيمين، أمّا في هذه فقد أخطأ، الكتب تُسلي ولا يتسلى عنها.

وهكذا كان جدي إبراهيم -رحمه الله، ويمّن كتابه ويسّر حسابه- يسامر الكتب، ويقرأ ما يجد أمامه من الصحف والمجلات، وربما احتفظ بقصاصات منها، ولما زار ابنه د.عليّ بن إبراهيم في بيته الجديد، وقد وضع المكتبة في الطابق الأول، عتب عليه وقال: المكتبة تكون قريبة من مكان الجلوس، ومن متناول الأيدي، ولا توضع في مكان قصي.

ولما نشر الشيخ حمد الجاسر -رحمه الله- مقالاً ذكر فيه أن (ماوان) مورد في عالية نجد في طريق المدينة بقرب حمى ضَرِيّة وحمى الربذة، تعقّبه الجد فذكر أنّ (ماوان) وادٍ يقع غرباً من الدلم بإقليم الخرج على يمين الذاهب إلى حوطة بني تميم، واستشهد بقول ابن عثيمين:

سقى هضباتٍ بعد ماوانَ في الحِمى
من المُزن ثَجَّاجُ العَـزَالِيِّ واكــفُ

ولعـل (مـاوان) اسـم للموضعيـن، ولم أحقـق أيهمـا المقصـود في بيـت

ابن عثيمين، فقد ذكر الشيخ سعد بن رويشد -رحمه الله- هذا مرة، وهذا مرة، وذلك في تعليقه على ديوان الشاعر في طبعاته المختلفة.

وكان جدي يتدبر ما يقرأ، وينتفع بما يسمع، ويحسن توظيفه والاستفادة منه، وكان ذات يوم يقرأ لابن كثير في تفسير سورة آل عمران فتندّت عيناه، فقيل له: تبكي عند قراءة القرآن، فما بكاؤك وأنت تقرأ في التفسير؟ فجعل يترضى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم حكى بعض ما روى ابن كثير من أخبارهم مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة أحدٍ حتى غلبه التأثر، واستدرّت دموعُه دموعَ من حوله.

ولا يكاد يخلو كتاب أدب أو تاريخ أو سلوك في مكتبتنا العامرة من تعليقات جدي إبراهيم، فكان إذا أعجبه خبر أو فائدة مما يقرأ قيّد رقم الصفحة على غلاف الكتاب الداخلي، ووضع عنواناً يدل على موضوعها، وربما نسخ الفائدة بخطه الحسن الجميل، ثم يروي لنا ما قرأ حينما نجلس إليه، ويقول متمثلاً: اكتبوا أحسن ما تقرؤون، واحفظوا أحسن ما تكتبون، وتحدثوا بأحسن ما تحفظون.

وقد جُمعت بعض اختيارات الجد، ثم طبعت قبيل وفاته في كتاب بعنوان: صيد الكتب، وتظهر شخصية جدي -رحمه الله- في اختياراته، فقد كان معظمها في مدح العقل، وفضل العلم والرحلة في طلبه، وعلوّ الهمة في تحصيله، وما يتّصل بأدب السفر والاغتراب.

ولما رأى جدي إبراهيم نهمنا في القراءة، وشغفنا بالكتاب، وطول خلوتنا به، وانقطاعنا إليه، جعل يوصينا بتحرّي مجالس أهل العلم والعقل وزيارتهم ومحادثتهم، ويروي لنا قصة عمر بن عبدالعزيز مع عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود حين قال: لأن يكون لي مجلس من عبيد الله أحب إلي من الدنيا، والله إني لأشتري ليلة من ليالي عبيد الله بألف دينار من بيت المال.

فقيل له: تقول هذا مع تحرّيك وشدة تحفّظك؟! .

فقال: أين يذهب بكم؟ والله إني لأعود برأيه على بيت مال المسلمين بألوف وألوف، إن في المحادثة تلقيحاً للعقل، وترويحاً للقلب، وتسريحاً للهمّ، وتنقيحاً للأدب.

وكأني أسمع جدي الآن يعيد عليّ هذه الفوائد الأربع، ويعددها، ويؤكد فائدة: تلقيحاً للعقل، ويشرحها.

وكان يأخذنا في زياراته لمن ننتفع برؤيتهم وحديثهم، ويحرص على تعريفنا بهم، وكان يتعرّض لأهل الصلاح في مظانّ الإجابة رجاء أن ينفحوه بصالح دعائهم.

وفي يوم جمعة أمر جدّي ابنه العمّ د.علي أن يأخذه بعد صلاة العصر لزيارة صديقه الحميم الشيخ عبدالله بن راشد التويجري -رحمه الله وإيّانا والمسلمين- فوجده في المسجد، وتحيّن غفلة منه فقبّل رأسه،

فلما التفت الشيخ، ورأى جدي أبرق وجهه بالمحبة والسرور، ثم قال: (أبو محمد، والله إنك غالي، ووالله إن الساعة ذي غالية)، ثم رأى أن ساعة الجمعة تفوت، فعزم على الجد أن يأتيه بعد المغرب في بيته، وما كاد يتم سلامه واعتذاره حتى انصرف إلى ما هو فيه من ذكر ودعاء وإقبال على الله تعالى.

قال جدي: هذا عهدي به مذ عرفته، لا يضيع ساعة الجمعة مهما كان.

ومن أعز أصدقاء جدي إبراهيم: الشيخ يحيى بن حسين -رحمهما الله- إمام جامع الملز الأول وخطيبه ومؤذنه وحارسه، وكان من أصلح الناس، قدوة في المواظبة على الإمامة، وحسن الوعظ والخطابة، وكان جدي كلما دعاه إلى زيارته يعتذر بالمسجد، فكان جدي يقول له ممازحاً: (مِتْ يا يحيى وشف هم بيصلّون وإلا لا).

وكان يذكر عنه أنه لم يأخذ إجازة عادية، ولا اضطرارية في عمله الوظيفي كلّه، وفي اليوم الأول لتقاعده، أخرج مبلغاً كبيراً من المال، وأعاده إلى خزينة الدولة؛ لأنه خشي أن يكون قد فرّط في شيء من ساعات الدوام، أو استخدم شيئاً من أدوات العمل في أغراضه الشخصية.

وكان جدي إبراهيم -طيّب الله ثراه بعفوه ومغفرته- مغرماً بالأدب شعره ونثره، يتذوقه، ويطرب له، ويتمثّله، ولا سيما ما سار من المثل والحكمة ودلّ على مكارم الأخلاق، وصواب الرأي، ومعالي الأمور.

وكان أكثر من يعجبه من الشعراء شاعر نجد ابن عثيمين -رحمه الله-، وكان يحفظ كثيراً من أشعاره وأخباره، ويقول: كان شاعراً عالماً فارساً، وذكر أنه رآه مرة واحدة فوجده ربعة من الرجال، ليس بالطويل ولا بالقصير، عليه السمرة، قد خضب لحيته بالحناء، ويرتدي عمامة أهل قطر.

وفي مكتبة والدي نسخة من ديوان الشاعر بإهداء جدي رحمه الله.

وكان جدي إبراهيم مولعاً بقصيدة الطائي:

سلِ الرماحَ العوالي عن معالينا
واستشهدِ البِّيْضَ هل خاب الرجا فينا؟!

وكان إذا أعجبه بيت من الشعر، أو نص من النثر يستعيده، ثم يعبّر عن إعجابه، فيقول: (هذا والله اللي يعرف يحكي).

وكان كثيراً ما يقول: (الله يريد بنا خير)، ويتمثل قول الشاعر:

استقدرِ الله خيراً وارضَيَنَّ بهِ
فبينما العسرُ إذ دارت مياسيرُ[1]

وقول الآخر:

تجري الأمور على وِفْق القضاء وفي
طيِّ الحوادثِ محبوبٌ ومكروهُ

---

(١) لحُرَيث العذري وبعده:

وبينما المرء في دنياه مغتبطاً ... إذ صار في الرمس تعفوه الأعاصيرُ
يبكي الغريب عليه ليس يعرفهُ ... وذو قرابته في الحيّ مسرورُ

ولهذه الأبيات الثلاثة قصة عجيبة أوردها الدينوري (المتوفى سنة ٣٣٣هـ) في كتابه المجالسة وجواهر العلم ١٤٤/٣.

فربـما سـرّني ما كنـتُ أحـذَرُهُ
وربمـا ساءني ما كنـتُ أرجـوهُ

وإذا تبين له خطأ رأي رآه، أو عمل أدّاه، تمثل قول الشاعر:

مشيناهـا خُطَـا كتبـت علينـا
ومن كُتبـت عليه خطـا مشـاها [1]

وآخر ما سمعته ينشد من أبيات قبل وفاته بأيام:

أحبُّ مكـارم الأخـلاقِ جُهـدي
وأكـره أن أعيـبَ وأن أعابـا
وأصفـحُ عن سِبـاب الناس حلمـاً
وشـرُّ النـاس من يهـوى السّبَابـا
ومن هـاب الرجـال تهيَّبـوهُ
ومن حقـر الرجـال فلن يهابا [2]

وحدثني جدي إبراهيم أنّ ابن عثيمين نظم قصيدةً في مدح الملك سعود، استهلّها بالتشبيب بالنساء، فلمّا سمع الملك عبدالعزيز قوله فيها:

ذي عارِضٍ مُشْـرِقٍ يَفْتَـرُّ عن بَـرَدٍ
عَـذْبِ المُقبَّـل بالصهباءِ مَقْطُوبِ

قال ممازحاً: (أجل ذي ما أكلت بصيلات) -جمع بصلة مصغّرا-.

---

(١) لم أقف على قائله، وقد ذكره في المستطرف ص٤٩١ غير منسوب من ضمن أبيات، هي:

أقام على المسير وقد أُنيختْ مطايـاهُ وغـرَّد حادياهـا
وقال أخاف عاديـة الليـالي على نفسي وأن ألقى رداهـا
مشيناها خطـا كتبت علينا ومن كتبت عليه خطـا مشاها
ومن كانت منيّتـهُ بأرضٍ فليس يموت في أرض سواها

(٢) نسبها الخطيب القزويني للحسين بن مُطَير الأسدي (المتوفى سنة ١٦٩هـ). ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة ١/١٩١.

واستنشدني الجدّ قصيدة ابن عثيمين: أقِلّا مَلامي فالحديث طويلُ.. التي وصف فيها وخد الركائب وهي تؤم بيت الله الحرام، فكان شرحه لها أحسن منها، يتذوقها تذوقاً عجيباً، ويتراءى صورها تخطر بين يديه، فيطرب لذلك طرباً بالغاً، حتى لكأنما هو قائل تلك القصيدة.

وسأقتطف منها أبياتاً وإن كانت بطولها في ديوان الشاعر المطبوع إلا أنّي لا أستطيع أن أهمل ذكرها وأنا أبصر بين حروفها روح جدي رحمه الله، فمنها:

فدع ذكر أيام الشباب وطيبِه
فما حالةٌ إلا وسوف تحولُ
وقل حبَّذا وخْدُ الركائب بالضحى
إذا اخْرَوَّطَتْ بعد الحُزُونِ سهولُ
ويا حبّذا تَهْوِيْمَةٌ تحت ضَالَة
إذا قيل فيءُ الظهر كاد يميلُ
وتمزيقُ جلبابِ الظلام إذا سجى
بعيسٍ نَمَاها شَدقَمٌ وجَدِيلُ
نؤمُّ بها البيتَ الحرامَ لعلَّهُ
يُحَطُّ به وزرٌ هناك ثقيلُ
هو الحرمُ الأمن الذي من يَحُلُّهُ
فليس لذي حقدٍ عليه سبيلُ
فكم عثْرةٍ فيهِ تُقالُ وتائب
يُحطُّ من الأوزار عنهُ حُمُولُ
فمُنَّ إلهي بالقبول على الذي
أتى زائراً فالفضل منك جزيلُ

وكانت مرثية ابن عثيمين في الشيخ سعد بن حمد بن عتيق -المتوفى

سنة ١٣٤٩هـ رحمهم الله- تبلغ من نفس جدي مبلغاً عظيماً حتى تكاد تأخذه مما كان فيه، وتصده عما هو بسبيله، ومن أبياتها:

أهكذا البدرُ تخفي نـوره الحفـرُ
ويفقـدُ العلـم لا عيـنٌ ولا أثـرُ
خَبَـت مصابيـح كنّا نستضـيء بها
وطوَّحت للمغيب الأنجـمُ الزُّهُـرُ
واستحكمت غربةُ الإسلام وانكسفت
شمسُ العلوم التي يُهدى بها البشـرُ

إلى أن قال:

ونُحْ على العلم نوحَ الثاكلات وقل
والَهْف نفسي على أهلٍ له قُبـروا
طوتك يا سعـدُ أيامٌ طـوت أمماً
كانوا فبانوا وفي الماضين معتَبرُ
بنى لكمْ حَمَدٌ يا لَلْعتيـق عُـلاً
لم يبنها لكمُ مـالٌ ولا خَطَـرُ
لكنّه العلـمُ يسمـو من يسـودُ بهِ
على الجهول ولو مَن جدُّه مضَـرُ

أما قصيدة: هو الموتُ ما منه ملاذٌ ومهربُ. التي رثى بها ابنُ عثيمين رفيقَ دربه، أديب نجد الشيخ: عبدالله بن أحمد العجيري -المتوفى سنة ١٣٥٢هـ رحمهم الله- فكنا نشفق على جدي من تذكرها؛ لما فيها من المواعظ التي يبقى حزنها في القلب أمداً طويلاً.

نجوى الروح

كانت روح الشعر تومض في عيني جدي إبراهيم، فلا تراه إلا شاعراً يطير بجناحي قصيدة، إلا أنه قد عوفي من نظم القريض، وابتُلي به عدد من ذريته، فكان كالقمر لا يقول الشعر، لكنه يوحي به، وتنبعث منه اللفتة الجميلة لا تخالها إلا قصيدة، فتقول: لا فض فوك.

ولقد أبصره شقيقي الشيخ القاضي: طالب ابن عبدالله بن إبراهيم في يوم من أيامه الأخيرة وحيداً في هدأة الصبح، مطرقاً تحت أشعة الشمس، يراجع سوالف العمر، ويصغي إلى همس الذكريات، فأنشد على البديهة:

وما كان هذا الصبحُ إلا حياتَــهُ
له فيــه أســـرارٌ ومغنىً وملعـــبُ
تضِجُّ به الذكرى يُصيخُ لصمتِها
لعلّ حديثاً من هوى الأمسِ يُطْرِبُ

وكان جدي إبراهيم -أسكنه الله الجنة- من جيل يسكنون الريف، ويكرهون الاستتار في البيوت، ويحبون الجلوس في الفضاء الفسيح؛ فتتسع بسعته أنظارهم ومداركهم، وتنشرح صدورهم وأخلاقهم، ثم صرنا نسكن وراء الجدران، في (صناديق من الإسمنت)[1] تختنق فيها النفس، وينغلق الفكر، وتضيق الأخلاق، ولا نكاد نعرف الوقت إلا بالنظر في الساعة، وتهنا عن أنفسنا في ضجيج المدينة وصخبها وزحامها الشديد، وشاعر المهجر يصيح بنا:

خذوا الخُلُقَ الرفيعَ من الصحاري
فإنّ النفــسَ يُفسدهــا الزحــامُ [2]

وقد أدركت بيت الطين الذي كان يسكنه جدي، ووُلد فيه معظم أعمامي، وبعض إخوتي وأبناء عمي، ولم يبق منه اليوم غير بقايا تستثير في النفس أشواقها إلى تلك المنازل وهاتيك الأيام.

ومن ذكريات الطفولة السعيدة أن جدي -رحمه الله- أخذني ذات يوم إلى فناء ذلك البيت بعدما أصبح مراحاً للماشية، وأصبحت بعض غرفه وملاحقه

(١) التعبير للشيخ علي الطنطاوي -رحمه الله- من مقالة له مؤثرة في رثاء البيوت الدمشقية القديمة نشرت في كتابه من حديث النفس بعنوان: بيوتنا هدمناها بأيدينا ص ٢٥١.

(٢) لإيليا أبو ماضي.

مأوى للجنّ، فدخلنا، وجعلت الأغنام تتقافز بين أيدينا، ويطير عجاجها، وأنا أحتمي بجدي إبراهيم وهو يضحك مني، ثم تخيّر من بينها شاة حلوباً، وجلسنا في أرض الحوش، فقرّب الإناء، ومسح الضرع، وقال: بسم الله، وأخذ يحلب الشاة ويريني، ثم أمرني بمحاولة ذلك، فبقيت تلك التجربة ذكرى مؤنسة في دروب الحياة.

أما البيت الجديد فقد اختار له جدي مكاناً رحباً في وسط مزرعته البهيجة، فأصبح البيت نافذةً تطلّ على جهاتها الأربع، تتنسّم شذاها الأريج، وتبصر وأنت فيه ما فيها من زروع وثمار ونخيل، وتسمع وشوشات الطيور على الأَثلات، وخرير المياه في السواقي، وترى جَمَال الماشية حين تُراح وتسرّح، وتألف ضجيج مكنة الماء حتى يوحشك صمتها آخر النهار.

والمزرعة البهيجة تورق بالحبّ، وتزهر بالرّضا والسعادة، وتستيقظ كلّ صباح تنثّ عبيرها في البيت، ثم تسترخي على نغمات الأصيل حتى يطبق الكرى أجفانها؛ فتفتِن في الحالين، وتسحر الروح مرتين.

والنخلتان المتسابقتان نحو السماء، المنحنية رؤسهما على البركة الحزينة، تتوشّحهما الشمس قبل الغروب، فتفعل في القلب ما تفعل.

وهناك من بعيد، من الجانب الغربيّ للمزرعة يطلّ جبل (أبو ولد) كالأب الحاني، مشرئبّاً برأسه، يحتضن ولده في منكبه، كأنما يحتضن به الدّلم وأهلها الطيّبين.

وتبيح سماءُ الريف من الآيات ما تخفيه سماء المدينة، وتكشف عن وجه غنيّ بالفتون، فتطبع في القلب الغرام، وتتلّثم بالغيم حيناً، فتزداد حسناً إلى حسنها.

وإذا اصطدمت غيمتان ورشّ المطر، ورأيتَ روحاً تذرع أرجاء المزرعة في مرح، تعدو حافيةً على التراب، تلثم قطرات المطر، تشمّها في نشوة وحبور، وتشدو بمحامد الفرح والابتهاج، فقل: رحم الله أبي، وسقى قبره الغمام.

وكان بيت المزرعة لنا سكناً ونزهة، ننعم فيه بالحرية والانطلاق، ونحيى على حكم الطبيعة في هدوئها وسكينتها وتكاملها واتّزانها أهنأ حياة.

وكم ليلةٍ سهرنا وثريّات الكون، ننظر في وجه القمر، ونرمق السماء ترمي في قلوب الغافلين شهاباً بعد شهاب.. يومها كان لنا في المزرعة قمران؛ وجه أبي وهذا القمر، ثمّ رحل الأول، وبقي الثاني يبعث فينا من الشجّى ما تبعثه ذكرى الأعزّاء الغابرين، فسقى الله مساء المزرعة الحالم بجلاله وتجلّياته وهدوئه الرّتيب، وسقى الله صباحها المفعم بالحركة والنشاط، ورائحة القهوة، وأصوات الديكة والأغنام والعصافير، وسقى الله من كان زين تلك الأماكن والأزمان.

ويا ألله من تذكّر المزرعة وطفولتنا فيها وتلك الأيام.. ورحمةُ الله وبركاتُه على أبٍ كان يرعى بأبوته الحانية كل ما كان في مزرعته، ويعامل ما حوله من الكائنات برقة ولطف كأنما يحسّ بما تحس به وتشعر، وكانت له مع كل نخلة

حكاية حب، وعند كل ساقية قصة كفاح، وفي كل ساعة من ليل أو نهار شجن يذهب، وآخر يجيء.

لا أدري أكانت الحياة أجمل مما هي عليه الآن؟ أم نحن كنّا أجمل مما نحن؟ ومهما تكن الإجابة فهي الشجى الذي لا يبرح هذا الفؤاد.

وقد كان جدي إبراهيم -رفع الله درجته في المهديين، وخلفه في عقبه في الغابرين- يتدبّر آيات الله في الآفاق، ويحتفي بمشاهد الكون أيّما احتفاء، وكانت أكثر عبادته التفكر، ولا أحصي كم رأيناه ساهماً يقلب وجهه في السماء، أو ينظر في الأفق البعيد، ويقول: (يا ما خَلَقَ الله.. يا ما خَلَقَ الله).

ولم يكن يشتغل أوّل النهار وآخره بغير الذكر والتسبيح بالغدوّ والآصال تضرّعاً وخِيفة، وله مجلس يوميّ يشهد فيه آية اختلاف الليل والنهار، ويتأمل صفحة الكون وهي تنقلب من ليل إلى نهار، ومن نهار إلى ليل، فكنا كثيراً ما نراه في ذلك المجلس المهيب وعيناه مثبتتان في السماء، يشهد حشرجة النهار، وهو يقول: لا إله إلا الله، يمدّ بها صوته، ويكرّرها، ويرفع بصره إلى السماء، في مشهدٍ عظيم من مشاهد التوحيد التي لا تنسى.

ثمّ لا يزال يراقب الشمس وهي تنحدر قليلاً قليلاً إلى الغروب، كأنّ عينه تتفتّح أول مرةٍ على هذا المشهد، فتهتزّ مشاعره بالإجلال لخالق الجمال،

ويرتعش فؤاده بالتقديس والتمجيد والتعظيم، ويلهج بالتسبيح بحمد ربّه العظيم تسبيحاً يخفق به القلب قبل أن يتحرّك به اللسان، وكنا نسمعه يقول وهو يرى ما يرى: (سبحان من هي دِبْرته.. سبحان من هي دبرته).

ثم يهمهم بأذكار ودعوات، ويظهر التحسّر على فوات اليوم ورحيله في زفرات وتنهّدات، حتى إذا تهادت إلى سمعه أصوات المؤذنين تملأ الهواء بجلال التوحيد وسكينة الإيمان، قال بصوت يحمل رعشة اليقين، ونبرة الأسى والأسف: (اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعاتك؛ فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني ووالدي ووالديهم وجميع المسلمين)[1].

وقد صار طيف الجدّ يتراءى لذريّته في حمرة الشّفق، وهمهماتُه ترنّ في أسماعهم لكل مغيب شمس، وأصبح للغروب عندهم أكثر من معنى؛ فمنهم من يقسم أنه صار يشهد الغروب في كلّ يوم، فيرجع بروح تختلف عن التي صحبته سائر اليوم، ومنهم من يقول: إن تلك الموعظة الصامتة لم يزل ضجيجها يملأ فؤاده حتى الآن، ومنهم من يقول.. ومنهم من يقول.. وكلٌّ يحدّث بما رأى، ويصف ما شهد، ويبقى الحال فوق المقال، وليس من رأى كمن سمع، ومن لم ينفعك لحظُه لم ينفعك لفظه. والدرس الصامت لا ينسى.

(١) روى أبو داود والترمذي وصححه الحاكم عن أم سلمة قالت: علمني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن أقول عند أذان المغرب: ((اللهم هذا إقبال ليلك، وإدبار نهارك، وأصوات دعاتك؛ فاغفر لي)).

ولم تزل آثار الجدّ وكلماته حيّةً في قلوب عارفيه؛ لأنه كان حيَّ القلب، متيقّظ الإحساس، وقد سمعنا من جدي إبراهيم كلاماً كثيراً فما سمعنا كلمة هي أشدّ وطْأً، وأبلغ أثراً من كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، يقولها في حالٍ من الصدق والإخلاص واليقين، يهتف بها في بعض المرات بصوتٍ عالٍ رفيع، فيكاد ينخلع القلب من قوّة هذه الكلمة، وجلال هذه الشهادة، وهي تجتثّ من أعماق الروح كلّ التفاتةٍ لغير الله، أو تعلّق بما سواه.

ومن الملاحظات التي يعرفُها كلّ من لقي جدي إبراهيم -رحمه الله- أنّك تسمع منه الكلمة قد سمعتها فتقع في قلبك موقعاً لم تقع مثله من قبل، وتمتدّ الحياة من نفسه إلى لفظه، فتجد في كلامه من الرّوح، وله من التأثير ما لا تجد مثله في كلام كثير من الناس، وله أسلوب عجيب لا يمكن تعلّمُه في رواية القصة، ونقل الفائدة، والتأثير في المتلقّي؛ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وهو من معاني قول الحق سبحانه: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ فقد قيل في تفسيرها: إنّ الأعمال الصالحة ترفع الكلم الطيّب، فيكون لكلام الرجل الصالح من القبول والنفع ما ليس لكلام غيره من الخلق، والكلمة من قائلها هي بمعناها في نفسه لا بمعناها في نفسها[1].

(١) الجملة الأخيرة من كلام الرافعي في وحي القلم ٣/٤٤ .

وكنّا نعرف الفرح والسرور والانشراح في نفس جدي وفكره حينما يلتقي أهل العلم والفضل والأدب، وفي شخصيّة جدّي إبراهيم من الألق، ولها من الحضور ما يجتذب القلوب، ويجتلب المحبة والإكبار.

حدّثني ابن عمي إمام المسجد الحرام وخطيبه الشيخ القاضي: صالح ابن محمد بن إبراهيم -أدام الله عليه نعمه، وزاده من فضله، وجزاه عنا خيراً- أنه كان مع الجدّ في زيارةٍ لأبناء الشيخ: عبدالله بن حميد رحمه الله فلمّا رآهم تبيّن في وجوههم ملامح شيخه الراحل، فجعل يخاطبه مرة ويوجّه الكلام إليهم مرّة، ويردّد بصدق ومحبّة وقد غلبه التأثّر وهاجت بخاطره الذّكرى: (يا مال الجنة يا أبو محمد، الله يغفر لك ويجزيك عنّا خير، الله يبارك في ذريّة الشيخ وقد فعل، ما شاء الله، نِعْم الوالد وما ولد)، ونحو هذا الكلام.

ثم حكى لهم الجدّ أنه لقي الشيخ عبدالله بن حميد -رحمه الله- ذات مرّة في صحن المطاف، فسأله عن المعتكف في الحرم يكون معه مبلغ من المال.. هل له أن يصرفه ممّن حوله ليتصدّق به على أكثر من فقير؟

فقال الشيخ: لا. لا يجوز.

فعقب الشيخ صالح بن حميد منبّهاً على علة المنع بأن قال: نعم. نعم؛ الصرفُ

بيع. أي: أنّ ذلك من المصارفة، وهي بيع، ولا يجوز البيع في المسجد[1].

قال ابن عمي الشيخ صالح: ثم امتد الحديث في المجلس إلى ذكر خبر الشيخ محمد بن أحمد بن سعِيد، رحمه الله، فذكر الجدّ أنه كان يزوره في عزيزية مكة بعد أن تقاعد من الديوان الملكي وجاور بيت الله الحرام، وكان الشيخ في أثناء عمله في الديوان يمثّل حلقة الوصل بين الملك والمواطنين فيما يتّصل بأعمال البر والمساعدة والهِبات العامّة والخاصّة؛ فكان يدخل على الملك والمعاملات على ذراعه ليعرضها عليه، فإذا رأى الملكَ مهموماً بأمرٍ أو متكدّراً من شيء رجع من حيث جاء، وانتظر بها نشاطَ الملك وانشراحَه؛ رعايةً لحوائج المسلمين ومصالحهم، ولأن سوء التوقيت يحول في الأغلب دون تحقيق الطلب من الملك، فمن دونه من المسؤولين والآباء والأزواج وغيرهم.

فلمّا سمع الشيخ صالح بن حميد هذا الخبر عن شيخه ابن سعيد طرب له، والتفت إلى أخيه وقال: اسمع يا شيخ أحمد. اسمع يا شيخ أحمد.

وكان جدي إبراهيم -أكرم الله مرجعه، وبرّد مضجعه- طموحاً متطلّعاً إلى الأكمل، لا يكاد يستريح، وإذا همّ بشيء تعجّل إنجازه، ويقول: عند الصباح يحمد القوم السُّرَى.

وكان يحب المتّقد المبادر، ويكره البطيء الفاتر، ويزجر من يحبسه أو يؤخره، وكان كثيراً ما يصيح فينا: (وش مِقْعدكم؟ ورا ما تظهَرون؟ رَيضين؟

(١) أورد الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- مسألة تشبه هذه المسألة بعد أن قرّر عدم جواز البيع في المسجد، وذكر أنّ من العلماء من جوّز الصرف عند الحاجة، ثم مثّل لذلك بمثالٍ ظريف فقال: مثل أن يقف عليك فقير في المسجد، وليس معك إلا عشرة ريالات، فتقول له: هذه عشرة، أعطني تسعةً؛ لكيٍ تتصّدق عليه بريال، قال: فبعض العلماء رخّص في هذا؛ لأن هذه صدقة لا يتوصّل إليها إلا بهذا العمل، ولم يقصد كلٌّ منهما البيع والشراء. ينظر: شرح رياض الصالحين ٦/٤٤٢.

يا شكواي إلى الله) ونحو هذه الكلمات.

وكان أشدّ ما يبغض من صفات الرجال: الكسل والخمول، وما رأيناه يكره من أصناف البشر أحداً أكثر من كراهته لـ (الرخوم)[1]، وكان يعيّر بهذا الوصف من يرى فيه شيئاً ولو قليلاً من كسل، أو حبّ راحة، ويردّد قول شاعره ابن عثيمين:

هِيْ بالهمَم لا بالجسومْ النّضَـارا
ومَا كلّ زَنْدٍ تِقْدَحـهْ يُورِي النارْ [2]

وحدثتني جدّتي فاطمة -رحمها الله، وجمع شملنا في الجنة- أنّ جدي كان في مطلع شبابه كثيراً ما ينشد:

إن عشت يا راسي كسيـتك عمامه
وإن مت يا راسي فدتك العمايم [3]

---

(١) نسبة إلى الرَّخَمَة، وهي من أكبر الطيور، لا تأكل إلا الجيف، وما يتبقّى من فرائس السباع، ولا تصيد لنفسها، يضرب بها المثل في الجبن وبطء الحركة، وقلة النفع لنفسها ولغيرها، وهي من ألأم الطير، وأظهرها حمقاً، وأقذرها طعما؛ لأنها تأكل العذرة، قال الشاعر:

ولا مجـاورة الأوبـاش تجمل بي كذلك البـاز لا يـأوي مع الرَّخَمِ

ينظر: حياة الحيوان للدميري ١/١٥٩-٥١١.

(٢) البيت من قصيدة لا يُحفظ لابن عثيمين من الشعر العاميّ غيرها، وقد نظمها سنة ١٣٠٤هـ في موقعة (خنّور) قرب (أبو ظبي)، وكانت الموقعة بقيادة قاسم بن ثاني حاكم قطر لأخذ الثأر في مقتل ابنه: علي، الملقّب جوعان، وكان بين القتيل والشاعر مودة قوية وصداقة، فحمل الراية في هذه الموقعة، ورجع بالنصر والثأر وبهذه القصيدة.

وكان جدي إبراهيم يحتفي بها، ولا أنسى فرحه حين ظفر بنسخة خطّية منها من صديقه الشيخ سعد بن رويشد -رحمهما الله- ، فطلب مني نسخها وطباعتها، ومطلع القصيدة:

النوم عاود للعـيون السهـارا والحرّ عاود ماكره عقب ما طارْ
والنفس عقب مزاومتها المرارا ترعى زَهَر نبـت من العـزّ نوّارْ

(٣) المشهور أن هذا البيت للشاعر محمد بن سرار المنبهي الشهراني، من قصيدة نظمها على كِبَر، تذكّر فيها أيام الصبا، ثم قال في آخرها:

هذا زمان فاتْ ما تنفـع المنى يوم أذكر الماضي تزيد العظايم
الراس شابْ وثالثْ رجولي العصـا والله يوَقّظ قلبْ من كان نايم

وكان جدي إبراهيم إذا أراد أن يكتب بقي أياماً يكتب ويمسح، ثم يكتب من جديد، ثم يرجع فيمحو ما أثبت حتى يكلّ ويملّ، وربما انقطع، وذلك بسبب تطلُّب الكمال الذي لا ينال، وعدم القناعة بالحسن عند ظنّ القدرة على التي هي أحسن.

وقد انتقل هذا الداء إلينا، فصرنا لا نكاد ننجز شيئاً، وتفوتنا كمالاتٌ كثيرةٌ في سبيل تحصيل كمالٍ واحد، ورضي الله عن آبائنا، وجزاهم عنّا خيراً، فقد كانوا يتوهّمون أن لدينا من القدرة ما يبلغ بنا درجة الكمال التي يطلبون، فكلما قصّر بنا ضعفٌ رمونا بقول أبي الطيّب:

ولم أر في عيـــوب الناس عيبـــاً

كنقــص القادريــن على التّمـــامِ

وكان جدي إبراهيم لا يقبل إذا أَمر أحدنا بشيءٍ أن يقول: لا أعرف، أو لا أستطيع حتى يحاول ذلك بنفسه ويجرّب، وهذه طريقته التي سار عليها في حياته، وكان يقول متمثلاً: (لو أنّ الناس إذا ثقُل عليهم أمر تركوه ما قام دين ولا دنيا).

ومن لطائف جدّي إبراهيم -عامله الله بلطفه ورحمته- أنه بقي ذات مرّةً في المزرعة وحده، فاحتاج إلى الخروج، ورأى السيارة أمامه، ووجد مفتاحها في يده، فقرّر أن يجرّب القيادة بنفسه في غياب جميع أولاده وأحفاده، ولم يكن ركب في كرسي السائق قبل ذلك قط.

ولما رجعنا إلى المزرعة وجدنا السيارة منكفئةً في حوض نخلة، تعبّ من ماء الساقي، ووجدنا جدي يقرأ القرآن في سرحة البيت، فسلّمنا عليه ونحن نتشوّق إلى معرفة ما حدث، فردّ السلام، وجعل يشتغل بالقراءة، ويتحاشى النظر في عيوننا، ثم لم يقل شيئاً، ولم نجرؤ على سؤاله عن شيء.

ولهذا كان يحرص على تعلّمنا القيادة من صغرنا، ويركب مع كلّ واحدٍ منّا قبل بلوغه العاشرة، فيأمره أن يسير به إلى حيث يريد، قرُب المكان أم بعد، فلا نلبث أن نتقن القيادة بالتجرِبة والمحاولة، وبعد كثيرٍ من الخطأ والمغامرة والمخاطرة، وهو معنا لا يضجر من جموح السيارة كلّ مرّةٍ واضطرابها وانطفائها، وكان يستشعر الخطر فلا يفتأ عن الحداء:

ونْ مشيتـــوا يا عَبِيـــد الله
وكّلـــوا بالنفـــس واليـــها

وكان يقول للسائق في أثناء السفر: (إذا زان لك الخطّ أسرع والله الحافظ)، ولا يرتاح حتى يسمع صوت منبّه السّرعة، ويقول للسائق إذا أبطأ في السير: (ليه ما تخليه يطنطن)، ويسأله هل في إطارات السيارة أو محركاتها ما يمنعه من الإسراع؟.

وكان جدّي إبراهيم -رحمه الله، وملأ قبره بالرضا والنور- يكره المبالغة في كلّ شيء، قال لي ذات مرة ونحن في مزرعته: (أذّن وارفع صوتك)، فرفعت صوتي وجعلت ألحّن الأذان وأمطّط في الأداء وأطوّل كفعل كثير من المؤذنين

في زماننا، فنهاني عن ذلك، وأغلظ عليّ فيما بيني وبينه حتى إنه أخذ يحاكيني فيمطّط ويطوّل في تهكّم وظَرْفٍ على طريقته في معالجة بعض الأخطاء بأسلوب السخرية الرادعة التي تنفّر من الفعل الخاطئ أيما تنفير.

وكان جدي إبراهيم بعيداً من التصنّع كلّ البعد، مطّرحاً للتكلّف غاية الاطّراح، تعرف ذلك في منطقه وهيئته وتصرّفه، وفي شأنه كلّه، وكان يكره أن يُتكلّف له بشيءٍ مهما قلّ، ويزهد في الشيء إذا قُرّب إليه، أو صُنع لأجله، وإن كان ذلك من زوجه أو ولده، حدّثتني جدّتي فاطمة -رحمها الله- أنها كانت في أوّل أيّامهما تُقرّب إليه نعله إذا أراد الخروج، وتفتح له الباب، وكان يكره ذلك، ولا يقول لها شيئاً، فلما داومت عليه، ولم تتنبه لكراهته زجرها فلم تعد إليه مرة أخرى.

وكان يعرض على من لقيه زيارته في منزله، فإذا أبى.. أخبره أنه يحب إكرامه، والجلوس معه، والأنس به، ولم يزد على ذلك، ولم يكن يرتاح لما يفعله بعضهم من الإلحاح في الدعوة، ومحاصرة المدعوّ وإحراجه بالحلف حتى يجيب، وكان لا يبالي بمخالفة هذه الأعراف.

وكان الضيوف يقصدون جدي في أيّ ساعة، فيجدون بابه مفتوحاً، وضيافته حاضرة، فلم يكن يحوجهم إلى طرق باب، ولا أخذ موعد، وذات مرّة زاره الشيخ د.عبدالعزيز بن محمد السدحان في مزرعته وقت العصر بعدما تغدّى عند

أحد شيوخ الدّلم، فقال له جدي ملاطفاً: جعلتني جداراً قصيراً؟! ثم قال: أنت شيخٌ، وارتباطاتُك كثيرة، ومن المؤكّد أنك مرتبط الخميس المقبل والذي بعده، والذي بعده، لكن نريدك رابع خميس، فلم يملك الشيخ إلا أن يلبّي.

وزارنا مرة ضيف فقدّمنا له قهوة، فقال: لا أشربها. فقال جدي: أحسن لك. ثمّ قدّمنا له الشاي، فقال: لا أشربه. فقال جدي: أحسن لك. ولم يُحرجه أو يلحّ عليه.

وكان ينهى من يزورهم عن الوقوف لصبّ القهوة إذا أمكن الجلوس، ويعتب على من يتأخّر في شرب القهوة؛ فيتسبّب في طول وقوف صاحب البيت.

وكان جدي إبراهيم -أضحك الله وجهه في الجنة- مرحاً خفيف الروح، سريع البديهة، حلو الفكاهة، وكنّا نجتهد في محاولة معرفة ما يرمي إليه من وراء نكاته، وإذا ابتسم ابتسامته المحبّبة صرنا على موعد مع أحد تعليقاته النادرة، ومفاكهاته العذبة.

أتذكّر أنه أُهدي لنا تمرٌ من أصهار أخي، وكانوا أهل نخل، فجعل أخي يأكل منه حتى كاد يأتي على جميعه، وجدي ينظر ويضحك، ثم قال بأسلوبه الساخر، ونكتته الحاضرة: (عمر.. عمر.. قل لأخوك تراهم شارينه من السوق).

وكان أحد إخواني لا يزور جدي في الأسبوع إلا مرة واحدة، فقال له ممازحاً ومعاتباً: (أنت أبو أسبوع).

وزارنا مرّةً زائرٌ فقمنا بما يجب له من الضيافة والإكرام، وجعل يدعّي الانتساب إلى قبيلتنا ويكثر في ذلك، وجدّي لا يصدّقه ولا يكذّبه، حتى إذا خرج جاء حفيد صغير كان يصبّ القهوة، فسأل جدي إبراهيم عن دعوى هذا الضيف التي صدع بها رؤوسنا من أول ما جاء، فكره الجدُّ سؤاله لما ينطوي عليه من عنصريةٍ وانتقاص، وقال له على سبيل التأديب والزجر: (ما سمعته ينشدني وهو يأشّر عليك: هالصبي اللي يصب القهوة ولدكم ولّا ماهوب منكم؟!) يريد تحذيره من الطعن في أنساب الناس والتشكيك فيها، وأنّ من فعل ذلك ولو بالحقّ لم يسلم من مقابلتهم له بالطعن والتشكيك، ولو بالباطل.

ومن الأشياء التي ورثناها عن جدي إبراهيم أنه لا يكاد يخبر باسمه ولقبه إذا أمكنه كتم ذلك، ولم ير حاجة تدعو إليه، وذات مرةً كان في مراجعة دائرة حكومية فرآه أحد معارفه من موظفي تلك الدائرة، ففرح به، واهتمّ بإنجاز معاملته.. وكان يجلس بجواره رجل من البادية، فلما رأى ما رأى أقبل على جدي بعدما كان معرضاً عنه، وبدأ يلوك أسئلة شخصية يحاول بها معرفة الجد، وموضوع خطابه، والموظف الذي احتفى به.. فما زاد الجد على أن قال له: (كلن يسَقّي شجرته) فاستحيى الرجل وخجل من تطلّعه إلى ما لا يعنيه.

ومرةً اتصل بالهاتف على رجلٍ من خاصّة أصحابه، كان يعمل قصّاباً في شبابه؛ ليزوره أو يستزيره، فردت زوجته وأخبرته أنه غير موجود، فأراد إنهاء المكالمة

لكنها سألته: من نقول له؟ فكره سؤالها، ولم يرد إخبارها، فقال: (قولي رجّال عنده بعير يبيك تقصبه)، فخجلت، وقالت: (أنت خابر أنه تاركها من زمان).

وكان مرةً مضطجعاً في مزرعته في الدّلم، فسمع صوت سيارة تقف، فسأل: مَن الآتي؟. فقيل له: أبو عبدالله. فذهب ذهنه إلى صاحبه الشيخ أبي عبدالله، وأنه قد جاء لزيارته، فهبّ من ضجعته، واعتدل في جلسته، فجاء حفيدٌ له لم يتزوّج بعد، فسلّم وجلس، ولما استبطأ جدي صاحبه قال: (وين أبو عبدالله؟).

فقلنا: هو هذا - يعني الحفيد - قد سلّم وجلس.

فأطرق مليّاً وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة، ثم رفع رأسه وجعل يقلّب يديه وهو يقول: هذا أبو عبدالله؟! هذا أبو عبدالله؟!. وأخذ يكرر ذلك حتى خجلنا من أنفسنا، ثم اضطجع، فكان في ذلك تربية لنا على حسن الجواب، وأنه لا ينبغي تعريف الشخص بكنيةٍ لا يعرف بها؛ بل إنها لا تزيده إلا جهالة، على أنّ الحفيد لو كان معروفاً بهذه الكنية لما حسن أن يعرّف بها إلى أبيه.

وكان جدي -عظّم الله أجره، ونشر بالخير ذكره- إذا قدم إلى الرياض يحبّ أن يصلّي في جامع الأمير عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن في عتيقة ليشهد الصلاة على الجنائز هناك، وذات مرّةً كان قافلاً من الجامع يمشي بعد صلاة

العصر على قدميه، فوقف له رجلٌ لا يعرفه، وعرض عليه أن يوصله بسيارته، فشكره وركب معه، ثم كره أن يشقّ عليه فطلب منه أن يقف به على الطريق العامّ، ولا يتوسَّط به الحيّ الذي يريد، فأبى وقال: ليس هذا موضع منزل، ولكن أخبرني: أين تريد؟ فلما ألحّ عليه قال جدي: أريد بيت رجل في داخل الحي ديّنته ديوناً؛ فلعلك تعينني على تقاضيها منه.

قال الشيخ صالح السليس: فسار بي الوالد من هنا ومن هناك، وجعل يقع في قلبي أنه يوجهني إلى بيت رجل من خاصّة أصحابي، فكلما اقترب من بيته زاد إشفاقي أن يكون هو المدين، فلم نزل نسير حتى وقع ما كنت أخشاه، وإذ هو يأمرني بالوقوف عند بيت صاحبي محمد، وفرح صاحبي لمّا رأى الشيخ، ولم أر قبل اليوم مديناً يفرح برؤية الدائن، وخجلت من نفسي، وركبني الهمّ، وقلت: والله ما صنعت خيراً حين جئت صاحبي بهذا الشيخ يطلبه، ولم يبق لي غير الاعتذار.

ثم أقبل صاحبي فرحاً عجلاً إلى الشيخ، يفتح له باب السيارة، ويقبّل رأسه، ويهلّي به ويرحّب، وأنا لا أصدّق ما أرى، إلى أن سمعت الشيخ يقول: هذا ولدي محمد، فزال عني ما كنت أجد، وأدركت أنه يقصد بالدين دين البرّ، وما يسلف الآباء من الإحسان لأبنائهم، وأنه يقصد بطلب إعانته على تقاضيه أن أدخل معه، فأكون ضيفاً عليه.

وأخبرني الجدّ أنه كان بمصر في يوم جمعة من سنة ١٤١٨هـ، فخطبهم شابٌّ من أهلها حليق اللحية خطبةً عظيمةً مؤثرةً، أورد فيها حديث: ((يطلع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة. فطلع رجل من الأنصار، تنطِفُ لحيته من وضوئه، قد تعلَّق نعليه في يده الشمال)).

قال: فلما كانت الجمعة الثانية وإذ الخطيب نفسه يشرح حديث: ((احفظ الله يحفظك)) ويضرب الأمثلة، ويقصّ القصص قال: وأكثر ما يقولون في خطبهم القصص، حتى كأني أوّل مرةٍ أسمع ذلك الحديث.

فلما فرغ من الصلاة وأقبل الناس يسلّمون عليه، أشرت إليه فأقبل، فسلَّمت عليه، وشكرته، ودعوت له، وأثنيت على خطبته، فارتاح لذلك، ثم قلت: صلّيت معك الجمعة الماضية، ولما سمعتك تقص قصة الصحابي الذي تنطف لحيته من الوضوء قلت (إن شاء الله ماهوب طالع علينا خطيبنا هذي الجمعة إلا ولحيته طول نمرة أو نمرتين) فضحك الخطيب، ولم يقل شيئاً.

قال جدي: وقد صار حلق اللحى في وقتكم أمراً مألوفاً، أما أنا فأذكر أنّ ثلاثة سرقوا من الماليّة، فحُلِقت لحاهم، وأُمر بربطهم في الصّفاة كلٌّ ينظر إليهم، وكان الناس يقولون: حلق لحاهم أشدّ من ربطهم أمام الناس، وما كنّا نرى حليقاً من أهل نجدٍ إلا فيما ندر، قال: وأذكر أن الشيخ عبدالله بن نصبان -رحمه الله- قال: هات لي (المُغْني) لعلّ لهم

عذراً جعلهم يسرقون من الماليّة[1].

قال: وكان عبدالعزيز حازماً وخصوصاً فيما يمسّ أمن الدولة، وإذا رفع له الأمر من ذلك بتّ فيه، رحمه الله رحمة واسعة.

(١) لم يترجم الشيخ ابن بسام لابن نصبان في كتابه الذائع «علماء نجد خلال ثمانية قرون» مع أنه على شرط المؤلف، وهو من شيوخ الجد رحمهم الله جميعاً.

وقد سألت المؤرخ الشيخ عبدالرحمن بن رويشد عنه فقال: كان إمام مسجد تركي مدة طويلة حتى صار المسجد لا يكاد يعرف إلا باسم مسجد النصيبي، وهو من طلبة العلم المتوسطين في التحصيل، وكان كفيف البصر، ويدرّس المختصرات في علوم الشريعة والعربية، وقد قال له الملك عبدالعزيز: أنت وكيلي عمن أتوكّل عليه، فصار تصرفه نافذاً على كل من لا وليّ له بولاية الإمام العامّة، ومن المهام التي وكلت إليه أيضاً: اختيار الأئمة والخطباء، وتوجيه القرّاء إلى الأمراء، وانتخاب الكتب، وهو الذي رشّح عبدالله بن عدوان وزير المالية ليكون كاتباً عند نورة بنت عبدالرحمن؛ أخت الملك عبدالعزيز، وزوج الأمير سعود بن عبدالعزيز الكبير. اهـ.

وجاء في كتاب (تاريخ المساجد والأوقاف القديمة في بلد الرياض لراشد بن عساكر ص١٠٠) أنّ مسجد تركي كان بناؤه في زمن حكم الإمام تركي بن عبدالله فيما بين سنتي ١٢٤٠ و١٢٤٩هـ، ويطلق عليه أيضاً مسجد الثميري، وهو ملاصق لقلعة المصمك من الجنوب، وقد بقي الشيخ ابن نصبان إماماً له اثنتين وستين سنة من عام ١٣٤٥هـ حتى عرف بمسجد النصيبي، وكانت وفاة الشيخ ابن نصبان سنة ١٤١٢هـ -رحمه الله-. اهـ.

ومن ضمن مقتنيات مكتبة الملك فهد الوطنية مكتبة الشيخ ابن نصبان أهداها الورثة للمكتبة بعد وفاة الشيخ، ويبلغ مجموعها أكثر من أربعمئة عنوان. وسألت الشيخ ابن رويشد عن لقب الشيخ هل هو النصيبي أم ابن نصبان؟ فضحك، ثم قال: (ابن نصبان للي يبي يعظّم من شانه، وإلا أهل الرياض يصغّرون أسماء الأسر خاصّة اللي ما ينتسبون إلى القبائل).

قمر في المتجر

كان جدي إبراهيم -رحمه الله، وأربح تجارته- يذكر لنا عن شيخه الشيخ محمد بن إبراهيم أنه كان كثيراً ما يقول لأولاده: إمّا العلم وإلّا التجارة.

فلعل جدي حين فقد مجالس العلماء في الرياض أخذ بوصية الشيخ، فاشتغل في قرية العليا بالبيع والشراء، وكان يستورد البضائع من الكويت، ويبيعها بنفسه في دكانه، ويساعده والدي وعمّي محمد[1].

وقد اتّبع الشيخ محمد بن إبراهيم في وصيته هذه من سبقه من أئمة المسلمين؛

(١) كانت مدة اشتغال الجد بالتجارة في قرية العليا نحو أربعة عشر عاماً من حين استقالته من التعليم سنة ١٣٧٣هـ إلى سنة ١٣٨٨هـ إذ تحول إلى الدلم، فاشتغل فيها بالزراعة نحو أربعين سنة، ثم انتقل إلى الرياض سنة ١٤٣١هـ.

فقد روى أبو بكر الخَلّال في كتاب الحث على التجارة والصناعة جملةً من وصاياهم بالاتّجار، فمن ذلك أن الإمام أحمد -رحمه الله- كان يأمر بالسوق ويقول: ما أحسن الاستغناء عن الناس.

وقال أبو بكر المَرُّوذي: سمعت أبا عبد الله يقول: قد أمرتهم -يعني ولده- أن يختلفوا إلى السوق، وأن يتعرّضوا للتجارة.

وقال علي بن جعفر: مضى أبي إلى أبي عبد الله، وذهب بي معه، فقال له: يا أبا عبد الله، هذا ابني. فدعا لي، وقال لأبي: أَلْزِمه السوق وجنّبه أقرانه.

وكانت التجارة جزءاً من حياة الصحابة رضي الله عنهم، روى البخاري، عن عائشة رضي الله عنها قالت: لمّا استخلف أبو بكر الصديق قال: لقد علم قومي أن حرفتي لم تكن تعجز عن مؤونة أهلي، وشُغلت بأمر المسلمين. وأخرج ابن سعد في الطبقات أن أبا بكر لما استخلف أصبح غادياً إلى السوق وعلى رقبته أثواب يتّجر بها.

وكان الأنصار أهل نخل وفلاحة، والمهاجرون أهل تجارة وصفق في الأسواق، وروى البخاري، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عمّالَ أنفسهم. وفيه عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصّفق بالأسواق، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم. يعني يشغلهم عن تمام ملازمة النبي صلى الله عليه وسلم وحفظ السنة.

وكانت مجالس النبي -صلى الله عليه وسلم- تعقد في المسجد، وبعض أصحابه في أسواق المدينة يتّجرون، أخرج الطبراني في الكبير عن أمّ سلمة أنّ أبا بكر كان يسافر إلى بُصرى للتجارة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

وروى مسلم عن عمر -رضي الله عنه- قال: كان لي جار من الأنصار، فكنا نتناوب النزول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فينزل يوماً وأنزل يوماً، فيأتيني بخبر الوحي وغيره، وآتيه بمثل ذلك. ولما خفيت عليه سنة الرجوع لمن استأذن ثلاثاً فلم يؤذن له قال معاتباً نفسه: خَفِي عليّ هذا من أمر النبي صلى الله عليه وسلم، ألهاني الصفق بالأسواق. يعني الخروج إلى تجارة.

فإذا كان هذا شأن الشيخين فما ظنّك بغيرهما من الصحابة؟!

وقد كان ستة من العشرة المبشرين بالجنة من تجّار الصحابة، وأغنياء الناس في زمانهم، ولم يكن في تصوّرهم أن الاشتغال بالتجارة ينافي الزهد في الدنيا، أو يعارض طلب العلم والدعوة إلى الله، وكانت الدنيا في أيديهم، ولم تكن في قلوبهم، فكانوا يسلكون طرق الكسب بنيةٍ صالحة ومخافةٍ من الله عز وجل كما ذكر الله عنهم ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ . لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

والمسلمون اليوم هم الأغنى، وهم الأفقر، ومكانهم بين الأمم في الاقتصاد والسياسة مكان المتسوّل أو الأسير، وما ظلمهم الله، ولم يبخل عليهم سبحانه، فقد هداهم لأقوم دين، وجعل أرضهم أغنى أرض.. ولكن كانوا هم الظالمين لأنفسهم بما عوّدوها من البطالة والكسل، والاتّكال على الوظائف، والفهم الخاطئ لحقائق الدين، والقعود عن أسباب التمكين، ولو نطق الزمانُ بنا هجانا.

ولم تكن وصية السلف بالاتّجار وصيةً بطلب ما تحصل به الكفاية من الرزق؛ فإن ذلك لازم بمقتضى الشرع والعقل، إنما هي وصية بالسعي إلى تحصيل الغنى؛ فمن نهى عن ذلك، ونفّر عنه، وعدّه من الحرص والشّره أو قعد عنه من غير اشتغال بما هو أولى وأكثر نفعاً، وأعظم أجراً، فقد أخطأ الطريق، وخالف هدي السلف الصالح.

قال رجل للإمام أحمد: إني في كفاية فقال: اِلزم السوق؛ تصل به الرحم وتعُد به. أي: على أهلك وعيالك ونفسك بأعمالٍ من البرّ لا يقدر عليها إلا الأغنياء؛ ولهذا قال فقراء الصحابة: ذهب أهل الدُّثُور بالأجور.

وقد ذكر ابن الجوزي -رحمه الله، وحسبك به عالماً عاقلاً مجرّباً- أنّ الأولى للعالم أن يجتهد في طلب الغنى، ويبالغ في الكسب، وإن ضاع بذلك عليه كثيرٌ من زمان طلب العلم.

ثم علل لذلك فقال: لأني علمتُ قلة صبر النفس على الكفاف، والعزوف عن

الفضول، وأنّ ذلك إن وجد منها في وقت لم يوجد على الدوام، فإن النفس لا تثبت على التعفف، ولا تصبر على دوام التزهد، ثم قد تعرض نوائب كالمرض يحتاج فيها إلى شيءٍ من المال، فلا يجد الإنسان بدًّا من الاحتيال في طلبه فيبذل عرضه أو دينه، وكم قد رأينا من شخص قويت عزيمته على طلب الآخرة، فأخرج ما في يده، ثم ضعفت فعاد يكتسب من أقبح وجه، فالأولى ادّخار المال، والاستغناء عن الناس، فيخرج الطمع من القلب، ويصفو نشر العلم من شائبة ميل[1].

وإنما أطلت في هذا لأن من الناس من صار يستغرب اشتغال طالب العلم أو الداعية بالتجارة، بل راجعني بعض طلاب العلم في هذه الوصية لأتحقّق من نسبتها إلى الشيخ مستبعداً أن يوصي الشيخ -رحمه الله- بنيه بالتجارة!.

ونِعم الوصية هي، فإن الأولى بعد تحصيل حدّ الكفاية من الرزق وما لا يسع المسلم جهله من العلم أن يشتغل المرء بما في طبعه واستعداده، فمن أمكنه الجمع بين العلم والتجارة فذاك، ومن تعذّر عليه أحدهما أخذ بالآخر، فإنّ الله قسّم الأعمال كما قسّم الأرزاق، وكلّ ميسّر لما خُلِق له.

ولم يصبر جدي -رحمه الله، وأعتقه من النار- على رقّ الوظيفة أكثر من أربع سنين حتى استقال من التعليم النظامي، واشتغل بالتجارة في قرية العليا، ثم

(١) صيد الخاطر ص٢٢٢.

بالزراعة في الدّلم، وكان فيهما -بحمد الله- موفّقاً محمود السيرة، وقد ترك ورثته أغنياء من بعده، جزاه الله عنا خير ما جزى به أباً عن ذريته.

وكان يثقل على جدي إبراهيم بقاء المال عنده دون تحريك واستثمار، فكان يبحث بنفسه عن الفرص ويسأل، ويعزم على الرأي ولا يتردّد، وينشد:

إذا كنــتَ ذا رأيٍ فكــن ذا عزيمــةٍ
فإنّ فســادَ الـرأي أن تتــردَّدا

وكان يكره أن يرى أحدنا فارغاً ليس في عمل دنيا، ولا في عمل الآخرة، وما أكثر ما كان يحثّنا على السعي والحركة، واستغلال الوقت بما يفيد، ويقول: نفسك إن لم تشغلها بما ينفعها شغلتك بما يضرّك، وينشد قول ابن عثيمين:

وفي اضطراب الفتى نُجْحٌ لبُغيتهِ..

ويقول: هذا الذي عليك، ثم تدبير الله تعالى فوق كلّ شيء، ويكمل البيت:

وللمقادير إسعادٌ وخِذلانُ

وكان جدي يقول: (خير الشّرَايا من شرى واصطبح)، أي: تعجّل الانتفاع بالشيء الذي اشتراه، وهو مثلٌ عاميّ يضرب للحث على شراء ما كان نفعه عاجلاً، وثمرته حاضرة؛ كهذه الناقة التي اشتراها صاحبها في الليل فشرب حليبها في الصباح.

والاصطباح من الصَّبوح، وهو كل ما أكل أو شرب غدوةً أي: فيما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس، ويقابله: الغَبُوق وهو ما يشرب بالعشيّ،

قال الأزهري: ويقع العشيّ على ما بين زوال الشمس إلى وقت غروبها، كلُّ ذلك عشيّ، فإذا غابت الشمس فهو العِشاء[1].

وصحبتُ جدي إبراهيم -صحبه الله برحمته وفضله- ذات يوم إلى أحد أصحابه من تجار العقار، فجعل يوصي جدي بالاستثمار في العقار، ويقول: إنّه لا يبور، ويقول: لي أكثر من نصف قرن في سوق العقار لا يركد إلا ريثما يزدهر.

ثمّ مر بي حديث في بركة العقار رواه الإمام أحمد، وابن ماجه، والبيهقي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((من باع داراً أو عقاراً فلم يجعل ثمنها في مثله كان قمِناً أن لا يبارك له فيه))، وعند ابن ماجه مرفوعاً: ((من باع داراً ولم يجعل ثمنها في مثلها لم يبارك له فيها)) وروى البيهقي، عن سفيان بن عيينة في تفسير هذا الحديث أنه قال: إنّ الله يقول: ﴿وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ فلمّا خرج من البركة ثم لم يعدها في مثلها لم يبارك له.

وكان جدي إبراهيم -رحمه الله، وتجاوز عنه- سمحاً في المعاملة، قنوعاً حسن التدبير للمال اكتساباً وإنفاقاً، لا يُغلب في البيع والشراء ولا يتعدّى، يأخذ حقّه، ولا يستقصي فيه، ويحفظ للناس حقوقهم، ولا يقصّر في شيءٍ منها، وكان أبيّاً على الضيم، لا يرضى أن يُنتقص من حقه شيء إلا بطيب نفس منه.

(١) ينظر: تهذيب اللغة ٣/٣٨، وتاج العروس ٦/٥١٨، ٢٦/٢٣٣، ٣٩/١٤٣.

أخبرني والدي الكريم الشيخ عبدالله بن إبراهيم -أدام الله سعادته وتوفيقه ومتّعه بنعمه وأمتع به- أنّ أحد أصحاب جدي كان يعمل في البناء، فعامله الجد على إصلاح جُدران البيت، وترك أجرته عند والدي، فلما انتهى أعطاه والدي المبلغ الذي رصده الجد، فأخذ منه شيئاً قليلاً وردّ الباقي، وقال: إنه لا يستحق غير ما أخذ، وأصرّ عليه أبي أن يأخذ المبلغ كلّه، فأبى، وقال: (إذا صار رفيقك حلو لا تاكله كلّه).

قال والدي: وكان لأبي دكّانٌ كبيرٌ في قرية العليا يبيع فيه معظم ما يحتاج إليه الناس نقداً، وإلى أجل، فلما انتقل إلى الدّلم تجاوز عن كلّ من بقي عليه شيء لعلّ الله أن يتجاوز عنه، وأشار أمام أسمائهم بما يفيد السداد، ثم لمّا رجع إلى قرية العليا زائراً بعد مدة جاء بعضهم ليقضي ما عليه، فلم يقبل من أحد شيئاً.

وكان جدي إبراهيم قد اشترى آلات زراعية من أحد أصدقائه وبقي عليه بعض أقساطها لم يتمكّن من سداده في أجله فاستنسأه، فجعل التاجر يزهّد الجدّ في الزراعة، ويذكر له أن ما يعانيه المزارع من الشقاء والكدح لا يقارب ما يعود به من النفع والربح، فقال جدّي -أثابه الله، وضاعف حسناته-: التعب كثير،لكن ننتظر ثواب الله في ذلك، وذكر له الأحاديث التي تبيّن فضل الغرس والزرع، وتُرتّب الأجر لفاعله ما انتفع بذلك منتفع من إنسان أو حيوان أو طير أو حشرة

إلى يوم القيامة، بأكل من ثمرها، أو تمتّع بظلّها، أو غير ذلك من أوجه الانتفاع، حتى ولو انتقل ملكها إلى غير من غرسها.

فقال التاجر: إذاً أعفيك من تلك الأقساط على أن تهب لي هذه الأجور؟ فضحك الجدّ وقال: ما أنا بأغنى عن الأجر منك، وفضل الله واسع، وهو الغنيّ الكريم.

ومع اشتغال جدي إبراهيم -رحمه الله- بالتجارة وما تقتضيه من منافسة ومزاحمة إلا أنه كان -بحمد الله- سليم الباطن، طاهراً من شحّ النفس وطمعها وجشعها، فكان يحبّ للمسلمين ما يحبّ لنفسه، ولا يحسد أحداً على خير ساقه الله إليه، وكان كثيراً ما يردّد المثل العاميّ الجميل: (إذا غنم غنيم فأنا غانم)، وغنيم هذا هو كل مسلم على وجه الأرض يغنم خيراً.

وقد رحل جدي ولم يورّثنا بغض مسلم، ولا هجر قريب، ولا عداوة جار، بل كان قدوة لنا في صلة الرحم، وإن قطعَت، والإحسان إلى الجيرة، وإن أساءت، ومن برّ الجدّ وصلته -رحمه الله، ووصله وإيّانا والمسلمين بعفوه ورضاه- أنه كان يضحّي في كلّ سنةٍ عن واحدٍ وعشرين رجلاً وامرأة، أكثرهم لا ولد له ولا عَقِب، وأوصى أن يضحّى عنهم من تركته، وتكفّل بعجائز كنّا نعُدّهنّ أخواته، حتى إذا كبُرنا علمنا أنهنّ من ذوي رحمه البعيد.

وذات مرة جاء فقيرٌ إلى جدي بورقة من عمّال جباية الزكاة مضمونها أن يعطى حامل هذه الورقة من ثمر المزرعة كذا وكذا، وكان ثمر المزرعة في

تلك السنة رديئاً، فطلب منه الجدّ أن يعود إليه من الغد، وذهب إلى السوق مع ابنه د. عليّ، واشترى تمراً جيّداً، وقال له: إذا جاء صاحبنا البارحة أعطه إياه، ثم أردف: أحبّ لأخيك ما تحبّ لنفسك.

وقصد قرية العليا رجالٌ من أهل الحوطة ينازعون جدي في أرضٍ اشتراها من سنين يزعمون أنها بِيعت في دَيْن، وأنها بيعت بغبن، فرحّب بهم، وقال: لا أرضى لكم أو عليكم الظلم، وغايتي وغايتكم الحقّ، فبيتوا عندي الليلة وإذا كان الصباح غدونا إلى الشيخ فعرضنا أمرنا عليه، فباتوا تلك الليلة في بيته، وتناولوا عشاءهم وفطورهم عنده، ثم ذهبوا إلى القاضي فحكم بالأرض لجدي إبراهيم، رحمه الله، ورحمهم أجمعين:

ومحـــا الرواحُ إلى مغـــاني الودّ ما اقترف البُكُـــورْ

في الرأي تضطغن العقولُ وليس تضطغن الصدورْ[1]

فما أحسن هذا التقاضي وما أشرف تلك النفوس!

ومن وصايا جدي التي تمثّلها في حياته أحسن تمثّل، وكان ينبّهنا عليها حيناً بعد حين قول وهب بن منبّه، رحمه الله: حقٌّ على العاقل ألا يغفل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها مع إخوانه، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويجمل؛ فإنّ في هذه الساعة عونا على تلك الساعات، وإجماماً للقلوب.

(١) لأحمد شوقي.

فكان جدي يخالط الناس، وكان ينفرد بنفسه، وكان يسعى للآخرة، ولا ينسى نصيبه من الدنيا، وكان يتعلّم ويتعبّد، ويقرأ ويذاكر، ويمزح ويجدّ، ويزور ويزار، في موازنة بين متطلبات العقل والروح والجسد، عمرت حياته بالحياة وغمرت شخصيته بالسكينة والرضا، فلا تراه في معظم الأوقات إلا نشيطاً، طيب النفس، صافي الذهن، و(إنّ المنبتّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى).

ولمّا كان جدي إبراهيم -أعلى الله مقامه، وأدام عليه إنعامه- بقرية العليا كان من أبرز من يستقبل العابرين بها من غير سابق معرفةٍ بهم ولا وسيلة، وفي ذات مرّة استضاف رجلين من أهل الحوطة: أحدهما موفور الصحة والشباب، والآخر مريضٌ موجوع، فتغدّيا عنده في طريقهما إلى العلاج في الكويت، ثم خرجا بعد العصر إلى (القلمة)[1] على أن يعودا للمبيت عند جدي.

فلما أذّن المغرب جاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال لجدّي: إنّ أحد ضيفيك توفّي، فعجب جدي، ثمّ زاد عجبه حين علم أنّ الذي توفّي هو ذلك الشاب القويّ النشيط.

ولمّا رأى الآخر ما نزل بأخيه كان الشفاء له أسرع من الموت لصاحبه، وقام كأن لم يكن به بأس، فسبحان الله المحيي المميت، شُفِي المريض، ومات الصحيح، وما أقرب الموت، وما أشد الغفلة عنه:

(١) القلمة: آلة كبيرة لاستخراج الماء تابعة لشركة أرامكو، حولها تلال من الرمل النقيّ يقصدها أهل قرية العُلْيَا يسقون منها، ويتبرَّدون عندها.

وكم من صحيحٍ مات من غير علّةٍ
وكم من سقيم عاش حيناً من الدهرِ
وكم من فتى يمسي ويصبح ضاحكاً
وقد نُسجــت أكفانــه وهو لا يــدري

وزرتُ الداعية الفاضل الشيخ: سعود بن هاجس السبيعي -أسعده الله في الدنيا والآخرة- فرأيته شديد المحبة لجدي إبراهيم، عظيم الثناء عليه، كثير الدعاء له، يقول: والله ما أعدّه إلا كأبي، قال: وجئته ذات مرة في مزرعته بالدلم فقلت: يا والدي ادع الله لي، فلما أكثرتُ عليه قال: لا تهتمّ أنا مشتغلٌ بالدعاء لك ولغيرك.

ثم حكى لي عن بداية معرفته بجدي -رحمه الله- فروى قصة يسميها قصة الخير والبركة والهداية، وكان في أثناء حكايتها يقف في كل مرة، ويلتفت إلى نفسه، فيقول: (هذا من فضل ربي، ثم فضل إبراهيم، الله يجعله في الجنة، الله أكبر يا إبراهيم).

حدّثني أنه نشأ في أهل الضُبيعة[1] بين شباب فطرتهم زاكية، وأخلاقهم طيبة كريمة، غير أنهم من ذرية آباء اتصلت أسبابهم بكبار القوم، فأخذوا عنهم بعض السّرف، ومحبة الغناء والطرب، قال: وما أنا إلا امرؤ من قومي

(١) الضبيعة والهياثم والسّلميَّة: قرى متقاربة من أعمال محافظة الخرج، تقع جنوب مدينة الرياض بمسافة ٧٥ كم تقريباً، على الطريق السياحيّ السريع الذي يربط العاصمة الرياض بجنوب المملكة.

لكني أزيد عليهم بأني شاعر، فلي من الإحساس بالجمال، ومحبة السّماع أوفر مما لهم، وكنت أسقي بعض نخلنا براويات الماء، فإذا نزلت في البئر أخذت أغنّي، فحدّثني أمير هجرتنا فيما بعد أن كبار القرية كانوا يقولون له: قل لسعود لا يغنّي حتى نفرغ من الصلاة؟.

فكان يقول لهم: سدّوا آذانَكم بقطن.

فيقولون: قد سددناها والله وسمعناه.

فيقول: بلُّوها بماء.. خلّوا سعود يغنّي!.

قال: وفي تلك الليلة لم أنم، وذلك أن لي أختين في الرياض أحبّهما أشدّ الحب، وإذا غبت عنهما مدةً صار في قلبي من الشوق إليهنّ مثل الحركة، فلما أصبح الصباح ودعّت أمّ هاجس، وانطلقت بسيارتي فاستوقفني أصحابي في الضبيعة، ثمّ في الهياثم، فما وقفت لأيّ منهم، ولا اصطحبت أحداً منهم؛ لخير أراده الله لي.

فلمّا جدّ بي السير رأيت على طرف الطريق شيخاً بهيّ المنظر، نقيّ الشيبة، ظاهر الوضاءة، معتدل الخلقة، قد طوى مشلحه على يده، واتقى بغترته الشمس، وقام في موقف الرّكوب إلى الرياض، وكان عندي نخلات فقلت: آخذ معي هذا الشيخ، لعله يعلّمني كيف يلقّح النخل.

قال: وكنت قد أضفت إلى سمّاعات السيارة سماعاتٍ أكبر منها؛ وذلك لشدة

شغفي بالغناء ومحبتي للطرب، فلما ركب معي الوالد أدرت المذياع، فتهادى صوت الشيخ عبدالباسط عبدالصمد وهو يتلو سورة يوسف، فذهب الوالد مع التلاوة، وتفاعل مع الآيات، وجعل يتحرّك، وبدا عليه التأثر والخشوع، وأنا في ذلك أسارقه النظر، وأعجب من حاله، ثم سألته: أنت يا والدي شاعر؟

قال: لا.

قلت: طالب علم؟.

قال: لا.

قلت: لستَ بشاعر ولا طالب علم فما هذه الحركة والتأثر؟.

فقال: (يا ولدي! صوت عبدالباسط عبدالصمد حرّك شجوني). ثم قال: (أما تعرف منظومة الصَّرْصَريّ[1] في قصة يوسف عليه السلام؟).

وكنّا قد وقفنا عند محطة السّلمية فمد الوالد لعامل المحطة ثمن الوقود فأمرته ألا يأخذ منه شيئاً، ثم انطلقنا، فقال الوالد رحمه الله: (أجل كروتك

---

(١) الصرصري: هو أبو زكريا يحيى بن يوسف الصرصري البغدادي الحنبلي الضرير، ولد سنة ٥٨٨هـ، سمّاه الذهبي: سيد الشعراء. وقال عنه ابن القيم: حسان السنة في وقته، والمتفق على قبوله، الذي سار شعره مسيرة الشمس في الآفاق، واتفق على قبوله الخاص والعام أي اتفاق، ولم يزل ينشد في الجوامع العظام، ولا ينكره أحد من أهل الإسلام. مدح النبي صلى الله عليه وسلم بمدائح كثيرة قيل إنها تقارب عشرين مجلداً، ونظم مختصر الخرقي في الفقه والكافي لابن قدامة، وكان شديداً في السنة متصدياً للمخالفين لها في باب الأسماء والصفات، وشعره مملوء بذكر أصول السنة ومدح أهلها وذمّ مخالفيها إلا أنه درس عند علي بن إدريس تلميذ الشيخ عبدالقادر الجيلاني وصحبه وتأثر به وبطريقته، قال ابن تيمية: ولهذا أنكرنا على الشيخ يحيى الصرصري ما يقوله في قصائده في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم من الاستغاثة به مثل قوله: بك أستغيث وأستعين وأستنجد ونحو ذلك. دخل عليه التتار بيته سنة ٦٥٦هـ فلما خلصوا إليه قتل عدداً منهم بعكّازه ثم قتلوه، رحمه الله. ينظر: مجموع الفتاوى ١/ ٧٠، واجتماع الجيوش الإسلامية ٢/ ٣١٢، وسير أعلام النبلاء ١٦/ ٤٦٤، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٤٤، وشذرات الذهب ٧/ ٤٩٣.

كروة أهل سدير؟) -من الكراء وهو أجر المستأجر-.

قلت: وما كروة أهل سدير؟.

قال: (جزاك الله خير، جزاك الله خير) [1] وجعل يردّدها فوقعت هذه الدعوة في قلبي، وحمدت الله عليها، وقلت في نفسي: هذه بشارة خير. ثم قلت: تحفظ يا والدي منظومة الصرصري رحمه الله، تسمعني شيئاً منها؟.

فشرع الوالد يغني أبيات المنظومة بإيقاعٍ شجيّ مؤثر، وتنغيمٍ متقطِّع حزين، يهزّ أوتار المشاعر، ويطرق باب العاطفة، وأنا أذهب مع يوسف عليه السلام وأجيء، وأنزل معه في كلّ موضع ينزل فيه وأنتقل، فما وصلنا الرياض إلا وقد انتهى بي التأثر إلى سكينة قلب، وانشراح نفس.

ثم أمرني الوالد بالوقوف عند بيت ابنه، فوقفت، وعرض عليّ النزول فقبلت، ولو طلب منّي حينها ما طلب لوجدني أطوع له من خاتمه؛ لما وقع له في قلبي من المحبة، فلمّا دخلت مجلسه رأيت قوماً أشرق الإيمان في وجوههم، فملأها نوراً، وآخى بينهم حبّ الله تعالى، وجمعهم همّ الآخرة، فصافحتهم اليدُ بعدما عانقهم القلب، وأخذ الوالد يعرّف بي: هذا سعود ابن هاجس العامري السبيعي من هجرة الضبيعة الذين كافحوا مع عبدالعزيز وفعلوا وفعلوا.. وما ذكرتُ له غير اسمي، ولا أدري كيف عرف ما عداه.

---

(١) مثل عاميّ مشهور، يحتمل معناه المدح والذم، فإنْ أريد به أنهم لا يطلبون مكافأةً على فعل الخير سوى الدعاء كان مدحاً، وإن أريد به أنهم لا يكافئون من يفعل لهم الخير بغير الدعاء مع قدرتهم على غيره فهو ذمّ، واستشهاد الجدّ به في هذا الموضع ينصرف إلى المعنى الأول؛ لاتفاقه مع سياق القصة، وفي الحديث الصحيح: ((إذا قال الرجل لأخيه: جزاك الله خيراً، فقد أبلغ في الثناء)).

قال: وبقيت مع تلك الوجوه المفلحة -إن شاء الله- يوم الخميس لا أفارقهم، ثم صحبوني إلى الضبيعة يوم الجمعة، وقام أحدهم فينا خطيباً فضمّخَ طيباً، وملأ القلوب إيماناً ويقيناً، وفرح بهم الناس، وجعل أمير الهجرة يسأل: من هؤلاء؟ من أتى بهم؟ من دلَّهم؟.

فقيل له: هؤلاء ضيوف ابن هاجس.

فقام الأمير عقب الصلاة وقال: ما قلت لكم خلّوا سعود يغنّي؟! الحمد لله الذي بدّل سيئاته حسنات، كنّا إذا رأينا في الضبيعة حالق لحيته، مسبل ثوبه قلنا: هذا ضيف ابن هاجس، واليوم رأينا هؤلاء الأخيار وهم ضيوف لابن هاجس.

فقال شيوخ القرية تصديقاً لكلامه: الله.. الله.

قال الشيخ سعود بن هاجس السبيعي: فكانت تلك أوّل معرفتي بجدك رحمه الله، وهي أوّل عهدي بالهداية إلى الله، والدعوة إليه، وكلّها من بركات الله، ثم بركة إبراهيم، جعل الله الجنة مأواه.

وقد خلّف لنا جدي إبراهيم -رفع الله درجته، وأعلى منزلته- خيراً كثيراً، فما خلّف شيئاً أثمن من حسن السمعة، وطيب الذكر، وصنائع المعروف، فلا يذكر -بحمد الله تعالى- في مجلسٍ إلا تضوّع أرجه الطيّب، وتبادر

كلّ من حضره ليحكي أحدوثة حسنة، ويروي ذكرى جميلة، وفي الأثر الذي يبعث الفأل، ويبشّر بالخير: ((إذا أردتم أن تعلموا ما للعبد عند ربّه فانظروا ما يتبعه من حسن الثناء)).

وقال أكثم بن صيفي: إنما أنتم أخبار فطيّبوا أخباركم.

وقال الأحنف بن قيس: ما ادّخرت الآباء للأبناء، ولا أبقت الموتى للأحياء شيئاً أفضل من اصطناع المعروف عند ذوي الأحساب.

وقال خلَف الأحمر:

خيــرُ ما ورَّث الرجـالُ بنيهــمْ

أدبٌ صالــحٌ وحُسْــنُ الثنـــاءِ

فرحم الله جدّي رحمة واسعة، وجزاه عنّا خير ما جزى به عباده الصالحين.

وقمر في البيت

كان جدي إبراهيم -رحمه الله، وأبدله داراً خيراً من داره، وأهلاً خيراً من أهله، وزوجاً خيراً من زوجه- محبَّباً إلى أزواجه وأهله، حريصاً على إيناسهم وإدخال السّرور عليهم، وإذا نزل في بيت أحدهم غمرت البهجة أهل البيت وضيوفهم وجماعة مسجدهم، وأنس به الجميع وفرحوا، وكان قبل استقراره الأخير في الرياض يأتي من الدّلم فيبقى عندنا اليوم واليومين، فإذا رجوناه أن يلبث أطول من ذلك، أنشد:

ما ينفعك يا زيد يومٍ تقيمَهْ

إلى صارت الفرقى عليك لزومِ

وجاء ذات يومٍ إلى بيتنا فوجده ساكناً موحشاً ليس فيه أحد، فلم يلبث أن أحسّ حركتنا وسمع ضجيجنا، فأنشد:

أحسبْ عَمَار الدار يا زيد جــدرانْ

واثر عَمَــار الدَّار يا زيــد أَهَلْــهَا

وكان يخبرنا أنه يفضّل النزول في بيتنا على غيره من بيوت أولاده، ويقول: لأني أكون عندكم كما أكون في بيتي، وإذا نزلت عند غيركم تكلّفوا لي ما يتكلّفون للضيف.

وفي هذا ملحظ لطيف ينبغي العناية به، وهو أنّ من البر أحياناً ترك البر، وذلك أن الله تعالى أمر بالإحسان إلى الوالدين، ولم يعيّن نوعاً واحداً من الإحسان؛ لاختلافه باختلاف الأزمان والأحوال والأشخاص، فربما كان الفعل الواحد من الإحسان كالمبالغة في الرعاية والخدمة والاهتمام برّاً في حق أب، وعقوقاً في حقّ أب آخر، والنبيه من الأولاد من يعرف كيف يبر أباه كما يريد المبرور، لا كما يشتهي هو، وبالله التوفيق.

وكان جدي إبراهيم- تغمده الله وإيانا والمسلمين برحمته ورضوانه- يرحم الأطفال ويلاعبهم، ويشتدّ على من يؤذيهم، ويقسو عليهم، وكان إذا رأى النعل في قدمي وليد لم يدرج بعد أخذ يضحك ويشير إلى قدميه ويقول: (يا مال الشوك.. يا مال الشوك).

وكان يحتفي بالصبيان ويكرمهم، ويحبّهم ويحبونه، ويعاملهم معاملة

الرجال، ويسند إليهم الأمور الكبار، ويقول متمثّلاً: إنهم صغار قومٍ كبار آخرين.

وقد زعمت مرة أنني أحبّ أحفاده إليه؛ لما رأيته يختصّني به، فوجدت كل واحد من أحفاده يدّعي لنفسه هذه المنزلة، ويقيم عليها الشواهد.

وكان يقدّمنا ونحن صغار للإمامة به في صلاة التراويح، وما أمّ أحدٌ من أبنائه أو أحفاده المصلين إلا بعد إمامته بجدّي في مسجد مزرعته بالدّلم، وصلّينا ذات مرّة مع جدي إبراهيم، فسمع صوت فرقعة أصابع، فنهانا بعد الصلاة عن ذلك، وقال: هذا عبث، والعبث لا يكون في الصلاة.

ومرّة أقيمت صلاة العشاء وأنا بجواره فتردّد قليلاً، ثم قال: (تقدّم فيك بركة إن شاء الله)، ثمّ عرفت فيما بعد سرّ هذا التردّد، وهو أنّ الصحيح من المذهب عدم صحة إمامة الصبيّ للبالغ إلا في صلاة النفل.

وكنت في مناسبة عند عمي د.علي بن إبراهيم حضرها الشيخ د. عائض القرني، ودعي إليها خلق كثير، فلما وصل الشيخ خرج جدي إبراهيم لاستقباله وجعل يردد بفرح ومحبة: من قبل رؤيتكم نلنا محبتكم..

وكنتُ وقتها صغيراً جالساً في أقصى مكان، فإذا جدي ينادي بصوت يملأ المجلس: عمر.. عمر.. عمر.

سكت الجميع، وتنقّلت عيونهم بين المنادي والمنادى، فلم أدر ما أفعل،

وبدا عليّ الارتباك، فلما وقفتُ لآتي جدي بدأ يروي حديثه، ثم تبسّم لي بعدما قفلنا راجعين، وقال: تدري لمَ ناديتك؟ لمّا رأيتُ الضيوف كلٌّ يتحدّث مع من حوله، أردت أن أجمعهم على حديث الشيخ.

وأحاول الآن أن أستذكر الحديث الذي استنصت به جدي الحضور فلا أستطيع؛ لأني لم أفق من فجأة النداء، وصمت الجميع، وحيرة الموقف إلا بعد فوات الحديث! رحم الله جدي كم كانت له من عجائب!

ولا أنسى أبداً تلك الساعة ونحن متفرّقون في غرف البيت، إذ نادانا جدي فاجتمعنا إليه، فأخرج من بين أوراقه قصيدةً من أوّل ما نظمت، كانت في رثاء إمام الحرم المكي الشيخ عمر السبيل، رحمه الله، فجعل يلحّنها كاملةً بصوته الشجيّ:

مآذنُ البيت تبكي البعد يا عمــرُ
والشمسُ تبكي ويبكي بعدها القمــرُ

وليس شيء أحبّ إلى الشاعر الكبير من سماع شعره؛ فكيف بالمبتدئ الصغير؟ فكيف إذا سمعه منشداً بصوت جده؟ فكيف إذا كان ذلك بمشهد من والديه وأهله؟ فكيف إذا رافق ذلك الفخر به والثناء عليه؟.

فهل يدرك الوالدان أن التقدير من داخل الأسرة لا يقوم مقامه أيّ تقدير من خارجها، ولا يعوّض فقده إن فُقد، وأن بسمة الرضا يقرؤها الابن في محيى أبيه، ونظرة الفخر تومض بها عينا أمه ترجح بكل ما

يناله من شهاداتٍ شكر، وحفلات تكريم، وهنا يحضرني قول شقيقي الشيخ القاضي د. فهد بن عبدالله بن إبراهيم:

عهــدٌ علـيَّ بأن أســـرَّك يا أبي
أمضـي على الدرب الطويـل وأَجهَـدُ
إني لأعلم لو سمعتَ قصيــدتي
أثنيـــتَ خيـــراً كالــذي أتعـــوّدُ[1]

وحدثني عمّي الشيخ د. عليّ بن إبراهيم قال: كان والدي نعم الأب، ونعم المربي، وكان ناصحاً مشفقاً عليّ بصفة خاصة، وكان يجبر خاطري، ويرفعني فوق قدري، وقد دعا لي بدعوة ما أحبّ أن لي بها الدنيا وما فيها.

غاضبتُه يوماً وأنا صغير فطلب مني أن أوصله لحاجة فأبيت، فذهب يمشي على رجليه إلى الشارع، فلما نصف الطريق وأنا أشاهده أشفقت عليه، وذهبت لأحمله، فركب معي، ثم قال يلاطفني: ما الذي أتى بك وأنت زعلان؟.

قلت: رحمتك.

فقال: رحمك الله كما رحمتني.

وصدق عمّي؛ فإنّ دعوة الأب بالدّنيا وما فيها، فإذا سمعها الابن فهي القوّة، هي الفرح، هي البشارة بالوصول.

(١) البيتان من مرثيّته في الجد رحمه الله.

وقد كان جدّي إبراهيم يدعو لنا كثيراً في قنوت الوتر، وسجدات الصلاة ومواطن الإجابة، ويكافئ المحسن منّا بدعوات خالصة له، يعيدها ويكررها على مسمعه مراراً، فكنّا نراها تسري في أرواحنا سريان العافية في البدن.

فمن نسي الدعاء لأولاده فقد نسي أعظم أسباب صلاحهم، ومن لم يُسمعهم الدعاء لم يسمعهم صوت السعادة.

وكنّا مع جدي إبراهيم -أعلى الله درجته في عليين- في يوم عيد، وقد أغضبه أحد أولاده، فسبق لسانه إلى الدعاء عليه، وشقّ ذلك علينا جميعاً، فهي دعوة أب، ودعوة رجل صالح، وذكّرناه بقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((ثلاثة لا ترد دعوتهم... والوالد يدعو لولده أو عليه)) فتبسّم تبسّم المغضب، ثم قال: أدري! ولقد حججت أكثر من عشرين حجة فما وقفت بعرفة مرة إلا قلت: اللهم لا تقبل دعائي على أولادي.

وكان جدي إبراهيم يجمعنا في العشر الأواخر من رمضان على مائدة القرآن، فيتلو كل واحد من أولاده وأولادهم وجهاً من المصحف، ويختمون القرآن ليلة تسعٍ وعشرين، وجدي يصحّح الخطأ، ويشارك في التلاوة.

وكان يأمرنا أن نجعل القدوات مثالاً لنا في التحصيل والمسابقة إلى الطاعات، فكان يأخذ عمي محمد إلى درس الشيخ محمد بن إبراهيم، ويقول له: انظر إلى ذاك الذي يكتب مع الشيخ كلّ ما يقول، فينظر فيرى شاباً حسن الخطّ،

سريع الكتابة، يتابع الشيخ، ويقيّد كل ما يسمع منه، في حين يكتفي غيره بتقييد الغريب أو الجديد من الفوائد، فيسأل أباه: من هذا؟ فيقول جدي إبراهيم: هذا الشيخ محمد بن عبدالرحمن بن قاسم. رحمهم الله جميعاً.

وكان جدي إبراهيم يحثّنا على طلب العلم في المساجد، ومواصلة التعليم النظامي إلى آخر مراحله، ويحرص على حضور مناقشة الرسائل العلمية لأبنائه وبناته، وقد ألحق عمي محمّداً بمعهد المعلمين لأوّل افتتاحه في قرية العُلْيَا، فلم يلبث سنةً ونصف السنة حتى ألغي المعهد سنة ١٣٨٠هـ؛ لقلّة الدارسين فانقطع جميع طلابه.

قال عمي: وأصرّ والدي أن أسافر لأكمل دراستي في معهد المعلمين بحوطة بني تميم، مع صغر سنّي، وشدّة تعلقي بأهلي، ومع حاجته إليّ، فانتقلت من قرية العليا إلى حوطة بني تميم، وبقيت في الغربة عشرين يوماً لا أفتأ أذكر أبي وأمي وأخي، فلا يرقأ لي دمع، ولا أحصّل في الدراسة شيئاً، ثم كتبت رسالة إلى أبي قلت فيها: (والله إني أكتب هذا الخطّ ودموعي تبطبط) هكذا بهذا اللفظ الطفولي المعبّر.

قال عمّي محمد: فما قرّ لأبي قرار حين قرأ الخطّ الذي كتبت، وما لبث أن سافر إلى الحوطة من قرية في اليوم الذي وصله الخط فيه، حتى أشفقت أمّي أن يكون حصل لابنها ما تكره، وظلّ أبي معي أياماً يثبّتني، ويشجّعني

ويجمعني بمدير المعهد وأساتذته، فيعدونني بالنجاح، ويسهّلون عليّ الأمر، حتى هدأت وسكنت، ولمّا اطمأنّ لذلك اشترى لي درّاجة، ورجع إلى قرية، فكنتُ بفضل الله، ثم بفضل أبي أصغر من تخرّج في معهد المعلمين وأنا ابن خمس عشرة سنة، وبقي أبي سنين يتذكر الدموع التي تبطبط فيضحك؛ ضحك الله إليه وأحبّه، وجزاه عني خيراً.

وحدّثني أبي أنه لمّا كان يَدرس في معهد إمام الدعوة، كان يذاكر لاختبارات المعهد في مسجد الفويتيه -جنوب معكال، على شارع الأعشى، ويعرف الآن بمسجد عمير بن وهب-، قال: وكان يذاكر معي صديق لي، فكنت أحدّثه عن قرية، وعن أختي الصغيرة، وبُعْد العهد بها، وشدة الشوق إليها.

وكان والدي إبراهيم في قرية، فقدم إلى الرياض قدوماً عارضاً، فجاء إلى البيت، فسأل عني؛ فأُخبر أني في المسجد.

وبينا أنا في المسجد أذاكر، إذ رفعت رأسي، فإذا طفلة صغيرة في داخل المسجد! فصحت بصديقي: (انظر إلى هذه البنية، سبحان الله! ما أشبهها بأختي التي حدثتك عنها)، وكان أبي قد أمرها بالدخول، فدخلت، واختبأ وراء سارية في المسجد، فلمّا سمعني أقول ذلك؛ أطلّ علينا يضحك؛ أدام الله ضحكه في الجنة.

وكانت إحدى عمّاتي تَدرس في كلية اللغة العربية فلم تعجبها درجتها في

الاختبار، ورأت أنها تستحقّ أكثر مما أخذت، وتقطع بحصول خطأ في رصد الدرجة أو تصحيح الإجابة، وما زالت تشتكي إلى جدي إبراهيم حتى أمر أبي بمراجعة أستاذ المادة الشيخ: ناصر الطريم.

قال أبي: فجئته، وشرحت له الحال، فما زاد على أن قال: كلٌّ يحسب خيله في الفلا سابقة.

فرجع أبي إلى جدي بهذا المثل وهو لا يعلم أنه قد رجع إليه بما هو أحب إليه من مبتغاه، فطرب له، وجعل يردده أياماً، ويداعب به بنيّته الأولى كلما رآها.

وحدثتني عمّتي الكريمة د. شريفة بنت إبراهيم قالت: كان أبي يسألني عن الرسالة أكثر من سؤاله عن أولادي، ويحثني، ويشجعني على إنجازها وإتقانها، وسألني مرة: (وشلون وليدك؟)

قلت - وقد استغربت سؤاله-: عندي بنت.

فنهرني وقال: (أدري. هذي بنيّتك، أنا أنشدك عن الكتاب).

قالت: وقد مرّت بي منعطفات كنت أترك فيها البحث، ثم أتذكّر حرصه وسؤاله واهتمامه فأعود وأتجاوزها.

ومن المواقف الكريمة للعم الموفّق الشيخ: د.علي بن إبراهيم -أسعده الله وأقرّ عينه بصلاح نيته وذريته- أنه في أثناء ما كان يُناقش في رسالة الدكتوراه

تفاجأ بدخول جدي إبراهيم إلى قاعة المناقشة، فما إن رآه حتى غمره الفرح والشعور بالامتنان، فاستأذن فانطلق إلى أبيه وهو قريب عهدٍ به، فسلم عليه، وقبّل رأسه، وأخذ بيده حتى أجلسه أمامه، ونزل أعضاء اللجنة للسلام على جدي مخالفين العرف الأكاديمي السائد مكبرين لعمّي هذا التصرّف النبيل، فكنت أراهم يسلّمون على جدي وهو يطريهم، ويخاطبهم بما يناسب مراتبهم، ويقول: (الرّجَال ما تقدّم إلا خيارها).

ومن أخلاق جدي النادرة: اعتقاد الفضل في كل فاضل، ولو كان من الذرية أو القرابة، وإنزال الناس منازلهم، ومعاملتهم على حسب ذلك.

وكان جدي إبراهيم يربّينا على البرّ -رزقنا الله برّه- يقول إذا رأى والدي يداعب إخواني الصغار، ويضع لقمة الطعام في أفواههم: (أجل ما سوّى لك كذا وأنت صغير) ثم يتبسّم، ويقلّب كفّيه، ويتذكّر يوم اشترى لوالدي درّاجة من مكة، وحملها في زحام الحج مسافة طويلة حتى وجد لها ولم يكد مكاناً على ظهر سيارة أقلَّتهم إلى قرية العليا، وأنه نسي كلّ ما لقي حين رأى فرحة والدي بها.

وقد يغفل كثير من الآباء عن تذكير أولادهم بما أسلفوا لهم من بر وعطف وحنان، وما صابروا في الكدح لأجلهم من عناء ومشقة، مع أن هذا من أكثر ما يعين على البر، ويحض على رد الجميل، ولهذا عطف الله تعالى قلوب الأولاد

على والديهم واستجاش وجدان البر والرحمة في نفوسهم بتذكيرهم بتربية الوالدين لهم حال ضعفهم وحاجتهم إلى الرعاية والحنان فقال سبحانه: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

وما أشدّ تشوّق الشيوخ إلى المحادثة، واستيحاشهم من الوحدة والانفراد، وكم يشتكي الآباء كبارُ السنّ من غربتهم في بيوتهم، وقلة جلوس أولادهم معهم، واشتغالهم عنهم في أثناء الجلوس بقراءة صحيفة أو متابعة قناة أو نظر في هاتف ونحوه، وقد لا يكون ذلك بسبب جفاء من الأب أو عقوق من الابن، ولكن يحمل عليه ضعف التواصل بينهما، وقلة الاعتياد، وعدم الهمّ المشترك.

كتب الشيخ د.عبدالملك القاسم عن زيارته الشيخ حمد الجاسر -رحمه الله- في آخر حياته، وكان ينيف على التسعين؛ فقال: وفي ذلك المجلس تحدّث الشيخ حمد قرابة الثلاث ساعات، وعندما استأذنه في الانصراف تلطف كثيراً، قال: يا بنيّ إنّ الإنسان إذا كبرت سنّه ورقّ عظمه تموت فيه جميع الشهوات إلا شهوة الحديث؛ فاعذرني يا بني. ا.هـ

وما عليّ أن أحدثك اليوم بحديث قريب من هذا الحديث على ما يضرم تذكّره في قلبي من العواطف، ويذكي من الأشواق.

يا بُعْد ما بيني وبين جدي!.

كنت في الثانية عشرة من سني، وكان جدي في الثانية والثمانين، وكنت آتي من الرياض إلى مزرعة جدي في الدلم أياماً لا تبلغ أن تكون شهراً في السنة، فأقضي معظم الوقت مع أعمامي ما بين تسريح الماشية وردّها، وتعديل السواقي، وجني الثمار، وصيد الطيور، والسباحة في البركة.. فلا أكاد أرى جدي إلا في صلاة أو على طعام.

كان جدي إبراهيم يجلس في المشراق كل غداة وعشيّ يستقبل زائراً، أو ينظر في كتاب أو يتأمّل الكون ويلهج بالأوراد.

وذات مساءٍ سمعته ينادي: عمر.. عمر.

(سَمّ يبه سَمّ) وجئت مسرعاً من داخل البيت، فلما قمت على رأسه قال بلطف شديد: (اجلس وأنا أبوك.. اجلس).

جلستُ بين يدي جدي إبراهيم جلوس المستفهم عن حاجته، المتعجّل إلى قضائها لأرجع إلى ما كنت فيه من مرح الفتيان، فلما رآني على هذه الحال أُرتِجَ عليه، فلم يدر كيف يبدأ الحديث، وبقيت جالساً بين يديه لا أدري ما يريد!.

فلم ألبث إلا قليلاً حتى نادتني عمتي من داخل البيت، ففرحت بندائها فرح الناجي من وحشة الصمت، وحيرة الانتظار، وحين وقفت لأذهب انقبضت

ملامح جدي، وقال: إلى أين؟.

قلت: (سمّ يبه تبي شيء.. شريفة تناديني).

فقال: هي أشياء يا بنيّ!.

ثم زمّ جدي شفتيه كالنادم على ما فرط منها، ثم أطرق، ثم حوّل عينيه ينظر في الناحية الأخرى، وما بين عزم الأبوّة وخوَرها، وقوّتها وضعفها، وكبريائها وتضعضعها تلجلجت في نفس جدي كلمة، فما زال يداورها حتى غلبته، فقال بصوت يشبه الرجاء: (لا. بس الحين بتجي القهوة كان بتأخذ لك فنجال).

فجلست من فوري والخجل يملؤني، وأضاءت في وجه جدي ابتسامة إيناس ثم قال وفي لهجته من اللطف مثل ما فيها من عتاب: (الله يحييه.. الله يحييه.. من يومين وأنا أتحرّى لك ولا جيت).

إيه.. وإذاً، فهذا كلّ ما كان يريد جدي! أن يراني، أن أجلس بجواره، أن نرتشف القهوة معاً.

يا لَقلب الأب ما أرقّه وألطفه وأحناه..

وأنّى للشبيبة أن تدرك ما يختبئ في ظمأ الشيخوخة من ظمأ، وما يستكنّ في حزم الأبوة وحرصها من رحمة وحنان، فانظر إلى جدي كيف تلطّف في

(١) لإبراهيم ناجي وهو في ديوانه بلفظ: فما أتعس يومي.

تنبيهي غاية التلطف، ووعظني أجمل موعظة، وعلّمني أحسن تعليم، ولم يكتم حبّه عني.. فجلست إليه مغتبطاً بالجلوس، وأخرج لي بعض دفاتره وأوراقه، وآنسني بأعذب ما يتذكّر ويحفظ ويروي.

فلولا هذه النجوى ما كانت (نجوى القمر).

رحمك الله يا جدي، رحمك الله، وآنس وحشتك، والله إن رجع كلماتك تلك.. يرجع بي إلى شوق شديد:

مرَّ يومـــي فارغـــاً منـــكَ ومـــن

أمل اللقيـــا فما أوحـــشَ يومـي[1]

وهأنذا اليوم أبٌ لطفلة صغيرة يَجِبُ قلبُها في القلب، وتترقرق روحها في الروح، ويرتسم خيالها في العين، فأرى بهجتها في كل ما أرى، تفتح عينيها على وجه أبيها أوّل ما تستيقظ، وتنداح من فمها ابتسامة.. فلا أدري أتبسّمت لي الدنيا أم (رَفَا) هي التي ابتسمت؟! وألاعبها فتميل برأسها حيناً، وتخبّئ وجهها حيناً، وتعبث بأناملها في وجهي حيناً.. فلا أرى من معاني السعادة معنى ليس في ميلها أو عبثها أو تخبّيها عن أبيها.

فإذا طغت على أبيكِ أشواقه، ورفّ بقلبه إليك يا (رفّو) الحنين، فهتف باسمك ذات صباح أو مساء وقد استبدّ به ما تعلمين وما لا تعلمين، فاسمعي في تموّج صوته أصوات قلبه، ولبّي من وراء ندائه نداءات روحه.

وقد كان أبونا إبراهيم -عليه السلام والرحمة والرضوان- يحبّ بنيه حبّاً جمّاً، وكان يحبّ بناته أكثر، وكم مرة أبصرته بينهنّ ينقّل نظرات الحب في غبطة وسرور، ويقول، وقد تغلغل هواهنّ في سويداء قلبه: (البنيّات البنيّات) يعني أنهن يأخذن من قلب الأب وعاطفته ما لا يأخذ الأبناء، وينفذن بلطفهنّ إلى مسارب روحه فيفهمن من سرائره ما لا يفهمون.

ولقد أدركَت جدي إبراهيم في آخر حياته خاصةً رقّة على أبنائه وحدبٌ على أولاده، صغيرهم والكبير، وقد أصبح أبي وبعض أعمامي أجداداً وهم يتذوّقون دفء أبوّته الحانية، وعصارة روحه المشفقة، وكان أولى منهم بالعطف وأدعى للشفقة والرحمة، إلا أنها عاطفة الأبوّة التي لا تزيدها الأيام إلا حنوّاً، وكلما أحسّت باقتراب الرحيل فاضت رقّة وتحنانا.

في مرض جدي إبراهيم الأخير، زاره عمي محمد، قادماً من مكة بعد يوم من دخول جدي للمستشفى، فسمعنا جدي يقول لابنه بصوتٍ لا نكاد نتبيّنه، وقد ثَقُل الكلام عليه جداً: (شوفك يوسّع الصّدر)!.

وسّع الله صدور الآباء بأبنائهم، وأقر عيونهم بهم، ورزقهم برهم في الحياة وبعد الممات، وأحسن الله عزاءنا في ذلك القلب الكبير الرحيب الذي توزّع في قلوب ذريته حتى وسعهم حبُّه وعطفُه واهتمامُه، وجزاه الله عنا خير ما جزى والداً عن ولده، فما نقدر والله على جزائه.

خاتمة النجوى

وما زال جدّي إبراهيم، حتى لقي ربه، أباً برّاً رحيماً، عزيز النفس، شامخ الروح، عظيم الإيمان، يُجمع كل من عرفه على أنه كان مثال الرجل العصاميّ الجلد، الشجاع المهيب، ولم يزل يخدم نفسه ويدبّر شأنه ولا يقبل من أحدٍ خدمة ولا يفرح بها، وكنّا نراه يلقى من ذلك أحياناً عنتاً ومشقة، لكنّها النفوس الشريفة تجد راحتها في الاستغناء عن الناس.

وقد رفض الاتكاء على العصا مع حاجته إليها حتى لا يتعوّدها إلى أن اضطرّ إليها في آخر عمره، ولما أثقلت الأيّام حركته صار لا يقبل من

الخدمة إلا بقدر ما تندفع به الضرورة، ثم يشكر عليها أجزل شكر، كأنّك قد فعلت له المستحيل، ويدعو: (الله يثيبك.. الله يثيبك).

وكان يعزّ عليه أن يكون موضع عطف أحد من الناس، ولكنّ الأيام تنقّصت من سمعه وبصره، واستنفدت قوّته حتى صار طريح الفراش، لا يكاد يسمع، ولا يكاد يبصر.. ذهبت قوّة البدن، وبقيت قوّة الروح، فكان لا يُصدّق بعجزه عن القيام حتى يحاول ذلك مراراً، ولقد وجد من نفسه يوماً خِفّة، فطلب مني مساعدته، ثم جعل يتشبّث بيديه الواهنتين، ويتكئ على جسده الراجف، ويحاول النهوض فلا يستطيع، ثم نظر في الأرض نظرة، ثمّ قال وصوته يرتعش على شفتيه: خلاص.. خلاص.. ما منّي شيء!.

هي الدنيا يا أخا الدنيا... تحطّم من تحبّ أمام عينيك، وتكسّر أجنحته في يديك، وتقول بملء فيها: حذارِ حذارِ من بطشي وفتكي! فأعرني من طمأنينتك إليها شيئاً أتقوّى به على العيش، وأقضّي به ما بقي من أيام الحياة.

أبـــي زورقـــــي حطّمتـــه الريـــاح

ومجدافُـــه في يـــديَّ انكســـر[1]

(١)للشاعر الراحل عبدالله بن زيد آل داود رحمه الله؛ وهو شاعر مطبوع من شعراء حوطة بني تميم، تنوّع في نظمه فطرق أكثر أغراض الشعر، وتأثّر بالبحتري وأبو ريشة، فكان نديّ العاطفة، حلو النغم، عذب البيان، قريباً من القلب، هو شاعر العواطف النبيلة، كما وصفه الدكتور عبدالله بن سليم الرشيد. سجّل رسالة الدكتوراه عن النقد النحوي الأندلسي وتوفي في حادث مروري قبل أن يكملها عام ١٤١٧هـ وله من العمر ٣٢ سنة، وقد جُمع أكثر شعره في ديوان مطبوع بعنوان: أطياف. ينظر: (عبدالله بن زيد آل داود أديباً) للدكتورة: شريفة بنت إبراهيم بن طالب.

وقد كنت أظنّ أنّ فقد الأب في مقتبل شبابه أعظم وقعاً على الأولاد من فقده بعدما يكبر ويشيخ، حتى رزئت بجدي إبراهيم، ورأيت ما فعل رحيله بقلوبٍ أحبّته، وأنست به، وتفيّأت ظلّه طول حياتها، وكيف أنّ الذكريات.. حتى الذكريات الباسمات عادت بعد فقدك يا أبي تُغرق العين، وتدمي الفؤاد.

ومن ينكر أن مصرع الشمس وهي تلفظ أنفاس الرحيل لوناً لوناً أشجى بكثيرٍ من كسوفها فجأةً في وضحِ النهار؟! وهل يجد الذي تقطف الوردة فجأةً بين يديه وجْدَ الذي يراها تذبل أمام عينيه شيئاً فشيئاً حتى تقضي؟! وهل من يموت مرّةً كالذي يموت موتات؟.

ولقد رحل جدي إبراهيم بعدما عاش تسعة وتسعين عاماً وأخذ من المئة شهرين أو ثلاثة، قضاها في رعاية الله معافىً في بدنه، ممتّعاً بحواسّه كلّها، حتى آذنت شمس حياته بمغيب، وسرى الفناء فيه في آخر ثلاث سنواتٍ من عمره المبارك، فأخذت جوارحه تضعف شيئاً فشيئاً، وبدأ يموت جزءاً جزءاً، ودبّ البِلى فيه من قَرْنٍ إلى قَدَمِ، وهو يشهد ذلك صابراً محتسباً، يذكر الله تعالى ويشكره، وينشد الأشعار، ويروي الأخبار، لم يسأم تكاليف الحياة، ولم يرهب هجمة الموت.

ثم اشتدّ به الألم في الأيام التسعة التي سبقت وفاته، فأدخل المستشفى،

وبقي يومين يشتكي ولا تعرف علّته، ثم زادت شكواه يوم الثلاثاء الذي سبق الثلاثاء الأخير حتى ذهب الألم بوعيه، وكنت أسأل أبي، متّعه الله وأمتع به، عن جدي، فيؤكد لي أنه طيّب، وأسأله: هل أفاق؟ فيجيب في سرعةٍ وجزم: اليوم يفيق إن شاء الله أو غداً.

كان أبي يُكابر الألم، ويفرّ من حقيقة أنّ حالة جدي خطيرة، فكنت أراقب أبي وهو يذرع أركان البيت يلهج بالدعاء لأبيه، وكنت أقرأ في وجه أبي ملامح حزنٍ جديد.

ثم انتبه الأطباء إلى نزفٍ في دوالي المريء أثّر في كبد جدّي المقروحة، أجريت على إثره عملية استقرّت بعدها حالته، ثم تحسّنت شيئاً قليلاً، ولما رأينا بشائر الشفاء غمرنا الفرح، وجعل بعضُنا يبشّر بعضَنا: أومأ جدي برأسه، حرّك جفن عينه.. وبقينا في ارتقاب الفرج ننتظر عودة الوعي الذي غاب، حتى تلقيت اتصالاً من أبي ظهيرة الثلاثاء الأخير، فلما أجبت.. لم أسمع صوت أبي، لكنّي سمعتُ أنين ابنٍ ينعى أباه بعد صحبةٍ تزيد على ستين عاماً.

ثم انصرفتُ بعد اتصال أبي إلى العمل الذي كنت فيه، أُوهِم نفسي أنّ شيئاً لم يكن ويُكذّبني اليقين، وأُظهِر التجلُّد، ويكسرني الحزن الدفين، وجئت من جدة إلى الرياض والنفس تمتلئ بالشجن ولا تفيض، ثم دُعينا إلى توديع أبي قبل أن يُدرج في لُفافات الكفن فيما بين صلاة الظهر والعصر يوم الأربعاء،

فاحترتُ ما بين النّدم والألم إلى أيّهما أصير؟! وجعلت لا أدري أأشهد الوداع أم لا؟ وأعلمُ أنني رجلٌ يقضي أكثر وقته منفرداً عن الناس، وله قلب تُسرِع الأحزان إليه، وتنهش من حشاشته الأشجان، وهو مع ذلك لا يستطيع أن ينسى، ولا يملك أنْ لا يتذكّر.

وقد كانت الذكريات لا تهيج إلا في الخلوات، فأصبحت تهجم في كلّ وقتٍ، وتغمر عينيّ بالدموع، ثم خشيتُ إن لم أفعل أن يفوتني شيء لا يمكن تداركه، وتبقى حسرة فوتِه في قلبي، فمضيت في آخر الوقت ألقي على الوجه الذي أحببت آخر النّظرات، وسلَّمت ولم أتمّ السّلام، ورأيت الابتسامة التي طالما رأيت، وقبّلت الجبين الذي طالما قبّلت، وتَعَقّبني المكفّن يطوي على وجه أبي لفائف الأكفان، ونحن نسترجعُ، ونُكبّر، وندرِف الدّمع السّخين، ثم رأيته يشدّ خيوطها بقوّةٍ، وأردتُ أن أقول له: تَرَفّق.. ترفّق.. فلم أستطع أن أقول شيئاً.

ثم حُمل النعش إلى المصلين، وقد ضاق عنهم جامع الملك خالد على سعته، وأنا أسير خلف النعش مرّةً، وأمامه أخرى، وأقول: هذا أبي.. ليس هذا أبي.

ثم كانت صلاة شكونا فيها بثّنا وحزننا إلى الله، وبعدها مشيت مع جموع المشيعين خلف الموكب المهيب، وبنا ما بنا، حتى وقفنا على شفير القبر (١/ف ١٢/٣٠) في مقبرة أمّ الحمَام، ثم رُفع أبي من النعش فوسّد في اللحد، ثم نُصب عليه اللَّبِنات، ثم وضع بين اللَّبِنات طين، ثم أهيل عليه

التراب، وأنا واقفٌ أنظر ولا أرى، ولم أشارك في شيء من ذلك بشيء، وما حثوتُ كفّاً من تراب.

ثم رجع الناس منتصف العصر، وبقيتُ إلى قبيل الغروب أطوّل الدعاء، وكلما هممتُ بالانصراف تذكّرتُ أنّ أبي يسمعُ قرع نعال المشيّعين؛ فعزّ عليّ الرحيل، حتى ألقى الله في قلبي أنني إنما استودعت أبي الرحيم الذي لا أرحم منه، والكريم الذي لا أكرمَ منه.. فتعزّيت.

ولا يستكثرْ أحدٌ عليّ ما كتبت، وما ذرفت، فإنما أكتب عن جدي الذي أحببته أصدق الحب، وتأثّرت به أعظم التأثر، وانتفعت بصحبته أيّما انتفاع، ولم أستوف كلّ ما أعرف عن جدي؛ وهو كثير، ولم أستخبِر أولاده وبقيّة أحفاده وأحبابه عمّا أجهل؛ وهو أكثر.

وإذا ربطت الأبناء بآبائهم روابطُ دمٍ وإحسان، فقد ضمّتني إلى أبي وشائج كثيرة؛ فأنا بضعة من بضعةٍ منه، أحبّت خَلْقه وخُلُقه، ورضاه وغضبه، وحديثه وصمته الطويل، وأُولعت بكلّ ما في شخصيته من إباءٍ وشموخ، وقوّةٍ وضعف، وكبرياء وتواضع، وإخبات وعبادة، وإيمان وحكمة.

ولقد أخذت على نفسي أوّل ما سمعت نعي جدي أن لا أسترسل مع أيّ خاطرٍ حزين، وأن لا أستقبل أيّ طيفٍ دامع، ولكنّ الحزن غلاّب.

ويشهد الله أنني حين رجعت إلى بيتك يا أبي بعد رحيلك، وسلَّمت على جموع المعزّين الذين يملؤون المجالس والساحات، وسمعت مواساتهم، وأمّنت على دعواتهم.. انصرفتُ بلا شعورٍ إلى المجلس الذي كنت تجلس فيه، أطلّ من فرجة الباب عليك كما كنتُ أفعل... فلم أجدك! واستبدّ بي وجعٌ شديدٌ حين انتبهت، فتذكّرت أني قد تركتك قبل قليلٍ هنالك؛ في بيتك الثاني، جعل الله كلّ منزلٍ تنزل فيه خير منزلٍ لك، ووسّع مدخلك، وأكرم نُزلك، ورفع درجتك في المهديين، وجمع شملك في عليين بسلفك الصالحين، وذريتك اللاحقين، ومن قال: آمين، وفي الله عِوضٌ عن كلّ فائت، والحمد لله على كل حال.

فهرس تفصيلي

بين يدي نجواه ٧
أخبار الصالحين تحف من الجنة ٨
لواعج الوجد في تأليف هذه النجوى ٨
شرف الآباء حجةٌ على الأبناء ٩
من سيئات التراجم ٩
هيهات لأحد أن يجلو ذات أحد على ما هي عليه ١٠
إن التشبه بالكرام فلاحٌ ١١
نجوى القلب ١٣
الحوطة مسقط الرأس ١٤
الشيخ الفاني وأشجان الولد المسكين ١٤
عسى اللي زيّنها في الدنيا يزيّنها في الآخرة ١٦
فإذا تأملّت البلاد رأيتها ١٦
النعيم لا يُدرَك بالنعيم ١٦
يا خبلنا يا خبل الناس ١٧
من العلم ما لا ينال بالتعلّم ١٨
ليلتي وليلة جدي إبراهيم ١٩
هاتف يوقظه لقيام الليل ١٩
من أعجب ما رأيت من أحوال جدي..... ٢٠
أمّا الجنّة فلها أهلها لكن يالله النجاة من النار ٢٠
الصفة التي تميّز بها على كثير من العابدين ٢١
ابن عبيد نسي بعض أولاده ولم ينس القرآن ٢١
من نفثات الطنطاوي المعبرة..... ٢١
سلامة الصدر والنصح للأمة..... ٢٢
آمين وجميع المسلمين ٢٢
لعل فيهم من ليس له عقب يدعو له ٢٢
الجزاء من جنس العمل ٢٢

عسى ماهيب على المسلمين عامّة ٢٣
في بيت آل رمضان ٢٤
كيف اهتدوا لهذه السنة؟..... ٢٥
يا حامل ثَقَلات العرش ٢٥
الزهد في المظاهر..... ٢٦
وكان يحج وحده ٢٧
«ثُم؟» موعظة من حرفين ٢٧
لو تأخّرنا شوي كان أحسن ٢٨
لم يتصدّر لإمامة أو خطابة ٢٨
أعمال القلوب ٢٩
أصل العلم العلم بالله ويتلوه العلم بأمره ٢٩
نجوى العقل ٣١
برهومي في الكُتّاب ٣١
جدي في ذاكرة المؤرخ عبدالرحمن الرويشد ٣٢
من شيوخه في الرياض ٣٣
ذكريات الشيخ محمد بن إبراهيم ٣٣
تكفينا قراءة أهل الحوطة ٣٤
إذا ما طابت لك قرية أبرق لنا ٣٤
انتظرتك لمّا سمعت نحنحتك في الصلاة ٣٥
ثناء الشيخ ابن باز على شيخه ابن إبراهيم ٣٥
ما أُخذ إلا بعيّرك يا ابن طالب ٣٦
الشنقيطي بحرٌ لا ساحل له ٣٦
الفوزان يسأل ابن حميد عن شيخهما ابن إبراهيم ٣٦
وصية الشيخ ابن إبراهيم لرجال الهيئة ٣٦
كلمة عن سماحة المفتي عبدالعزيز آل الشيخ في صباه ٣٦
العلم مواهب من رب العالمين ٣٧
«راعي السِّفَر» الشيخ محمد بن عبداللطيف، جد سماحة المفتي ٣٧
قصة ظريفة للشيخ العنقري مع ولده ٣٧
القاضي أبو حسين والحنيني واللبن ٣٨
القاضي الذي رد شفاعة الملك ٣٨

حتى لا يتأكّلك الشوق ٣٩
فوائد من مجلس الملك عبدالعزيز ٣٩
الشاعر الغزّاوي يودّع الملك في الميناء ٤٠
وكان طويل الصمت ٤١
إن كانت سيئاتهم كالجبال فإن حسناتهم كالليل ٤٢
شهود الصلاة على الملك فهد ٤٢
أهل المسجد أولى بروضة مسجدهم ٤٢
لا تروح للناس إلا وبطنك فيه ربعه ٤٣
ما به أحد تزوج إلا يقول ليتني متقدّم ٤٣
وأفضل قَسْم الله للمرء عقلُه ٤٣
العقل وفضله عند السلف ٤٣
الصفة التي غلبت على جدي إبراهيم ٤٤
من كلماته الظريفة في العتاب ٤٥
إذا ما مضى القرن الذي كنتَ فيهمُ ٤٦
كلاهما مصيب ٤٧
مَلاحظة في دعاء الاستسقاء ٤٧
اتركها في مصر ٤٨
لا تفعل المستحب إذا كان فعله يؤدي إلى فرقة وشقاق ٤٨
رأي ابن باز في زيادة لفظ «وبركاته» في التسليم من الصلاة ٤٩
ملاحظة على بيت للشاعر ابن عثيمين ٤٩
موضع المكتبة من البيت ٥٠
ماوان بين جدي والشيخ حمد الجاسر ٥٠
حينما تندت عيناه ٥١
صيد الكتب وطريقته في القراءة والتدوين ٥١
الوصية بالمجالسة وبيان فوائدها..... ٥٢
عصر الجمعة وزيارة الشيخ عبدالله التويجري ٥٢
مع الشيخ يحيى بن حسين ٥٣
متْ يا يحيى وشف هم بيصلون وإلا لا؟..... ٥٣
الَغرام بالشّعر ٥٣
مع الشاعر ابن عثيمين ٥٤

أبيات يكثر من تمثُّلها ٥٤
هذا والله اللي يعرف يحكي ٥٤
آخر ما أنشد من أبيات ٥٥
تعليق الملك على قصيدة ابن عثيمين ٥٥
قصائد تعجبه كثيراً ٥٦
نجوى الروح ٥٩
كالقمر لا يقول الشعر لكنه يوحي به ٥٩
بيتان أوحى بهما لأخي طالب ٥٩
سكنى الريف وصناديق الإسمنت ٦٠
ذكرى حلب الشاة ٦٠
وصف المزرعة ٦١
النخلتنان المتسابقتان نحو السماء ٦١
جبل أبو ولد ٦١
وإذا اصطدمت غيمتان ورشّ المطر ٦٢
وكان لنا في المزرعة قمران ٦٢
وكان يتدبر آيات الله في الآفاق ٦٣
يا ما خَلَق الله ٦٣
حشرجة النهار ومشهد من مشاهد التوحيد ٦٣
سبحان من هي دبرته ٦٤
اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك ٦٤
ألق الشخصية وقوة التأثير ٦٥
مع الشيخ عبدالله بن حميد وأبنائه ٦٦
ذكرى الشيخ محمد بن سعيد ٦٧
وكان طموحا متطلعا إلى الأكمل ٦٧
أشد ما يبغض من صفات الرجال ٦٨
إن عشت يا راسي كسيتك عمامه ٦٨
القصيدة التي لا يحفظ لابن عثيمين من الشعر العاميّ غيرها ٦٨
طريقته في الكتابة وتطلب الكمال الذي لا ينال ٦٩
تجربة قيادة السيارة ٦٩
وإن مشيتوا يا عبيد الله وكّلوا بالنفس واليها ٧٠

إذا زان لك الخط أسرع والله الحافظ ٧٠
بعده عن التصنع واطراحه للتكلف ومواقفه في ذلك ٧٠
أذِّن وارفع صوتك ٧٠
مع الضيوف ٧١
جعلتني جداراً قصيرا ٧١
أحسن لك ٧٢
من مفاكهاته العذبة ٧٢
قل لأخوك تراهم شارينه من السوق ٧٢
أنت أبو أسبوع ٧٢
ما سمعته ينشدني وهو يأشّر عليك ٧٣
كلن يسقّي شجرته ٧٣
أنت خابر أنه تاركها من زمان ٧٤
هذا أبو عبدالله؟! ٧٤
دين البر وحيرة صاحب السيارة ٧٤
مفاكهته للخطيب الحليق ٧٦
لعل لهم عذراً في سرقة الماليّة ٧٦
مع الشيخ عبدالله بن نصبان ٧٧
قمر في المتجر ٧٩
وصية الشيخ محمد بن إبراهيم لأولاده ٧٩
وصايا السلف بالاتّجار ٨٠
عمل الصحابة في التجارة ٨٠
ستة من العشرة المبشرين بالجنة كانوا أغنياء ٨١
معنى وصية السلف بالاتّجار ٨٢
وصية ابن الجوزي بالاتجار وإن ضاع كثير من زمان طلب العلم ٨٣
الاستقالة من الوظيفة ٨٣
وكان يثقل عليه بقاء المال دون تحريك ٨٤
إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة ٨٤
وفي اضطرابٍ الفتى نُجْحٌ لبغيته ٨٤
خير الشرايا من شرى واصطبحَ ٨٤
عليك بالعقار ٨٥

حديث في بركة العقار ٨٥
من أخلاقه في البيع والشراء ٨٥
إذا صار رفقيك حلو لا تأكله كله ٨٦
لعل الله أن يتجاوز عنه ٨٦
التعب في الزراعة كثير لكن ننتظر ثواب الله ٨٦
إذا غنم غنيم فأنا غانم ٨٧
لم يورّثنا بغض مسلم ولا هجر قريب ولا عداوة جار ٨٧
أحبَّ لأخيك الفقير ما تحب لنفسك ٨٧
المَدعي في ضيافة المدعى عليه ٨٨
الساعات الأربع في حياة جدي إبراهيم ٨٨
قصة الضيف الذي مات فجأة ٨٩
سبب هداية الشيخ سعود السبيعي ٩٠
صوت عبدالباسط عبدالصمد حرّك شجوني ٩٢
منظومة الصرصري في قصة يوسف ٩٢
كروة أهل سدير ٩٣
أثمن ما خلّفه جدي لنا ٩٤
وقمر في البيت ٩٧
وكان محببا إلى أزواجه وأهله ٩٧
ما ينفعك يا زيد يوم تقيمه ٩٧
واثر عمار الدار يا زيد أهلها ٩٨
لماذا يفضّل النزول في بيتنا؟ والملحظ اللطيف..... ٩٨
يا مال الشوك ٩٨
إنهم صغار قوم كبار آخرين ٩٩
تقدّم.. فيك بركة إن شاء الله ٩٩
مع الشيخ د. عائض القرني ٩٩
من قبل رؤيتكم نلنا محبتكم ٩٩
لا أنسى أبداً تلك الساعة ١٠٠
من مرثية أخي فهد في الجد رحمه الله ١٠١
ما الذي أتى بك وأنت زعلان ١٠١
دعوة الأب بالدنيا وما فيها ١٠١

اللهم لا تقبل دعائي على أولادي ١٠٢
وكان يجمعنا على مائدة القرآن ١٠٢
مع الشيخ محمد بن عبدالرحمن القاسم ١٠٢
خبر الدموع التي تبطبط ١٠٣
سبحان الله ما أشبه هذه البنية بأختي ١٠٤
كلٌّ يحسب خيله في الفلا سابقة ١٠٤
وشلون وليدك؟ ١٠٥
من المواقف الكريمة للعم علي ١٠٥
الرجال ما تقدِّم إلا خيارها ١٠٦
أجل ما سوَّى لك كذا وأنت صغير، والتربية على البر ١٠٦
غربة كبار السنّ ١٠٧
تشوّق الشيخ حمد الجاسر للمحادثة ١٠٧
يا بعد ما بيني وبين جدي ١٠٨
فلولا هذه النجوى ما كانت نجوى القمر ١١٠
بنتي رَفَا ١١٠
البنيّات.. البنيّات ١١١
شوفك يوسّع الصدر ١١١
خاتمة النجوى ١١٣
لماذا رفض الاتكاء على العصا ١١٣
الله يثيبك ١١٤
خلاص خلاص ما مني شيء ١١٤
هي الدنيا يا أخا الدنيا ١١٤
أبي زورقي حطّمته الرياح ١١٤
بين الغروب والكسوف ١١٥
الأيام الأخيرة ١١٥
اتصال أبي ١١٦
آخر النظرات ١١٧
ولكن الحزن غلاب ١١٨

نجوى القمر

انتهى والحمد الله تعالى كثيراً

ويغشى قلبي الآن أسفٌ لا أجد بدّاً من البوح به، على أحاديثَ لم أحفظها عن جدي إبراهيم، وأسئلة لا أعرف جوابه عنها..

وهو الذي قدم إلى الرياض في شرخ الشباب، وهي آهلة بالعلماء الأعلام، فأقام فيهم أربع سنين، لا شُغل له إلا الطواف بحلقهم وتقصّي أخبارهم، ثمّ ابتدأني من ذلك بفرائد كان هو شاهدها الواحد، أو شاهدها الباقي، حفظتُ من ذلك ما حفظت، ونسيت من ذلك ما نسيت..

فكيف لا آسى على علمٍ طار من اليد، وذكريات ليس إليها سبيل؟!.

وربّ حدثٍ لا تحفل به اليوم يصبح ذكرى عزيزة في مأتيّ الأيام، وربّ حديثٍ لا تلتفت له يتأكّلك الشوق إليه بعد فوات الأوان!

فمن أدرك أبويه فليغترف من سيرتهما غرفاتٍ، تخفّف ظمأ الشوق، وتبلّ عطش الذكرى، فإن لم يكن للناس فيها نفع كان له فيها متعة أو سلوى.

ردمك : ٩٧٨-٦٠٣-٠٢-٣٨٦٠-٦